الثقافة

مجلة فكرية جامعة تصدر في دمشق

العدد الثاني – السنة الثالثة
تموز « يوليو » ١٩٦٠

تموز (يوليو)

١٩٦٠

العدد الثاني

السنة الثالثة

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية شهرية

دمشق ص ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKASHE

لغـة ... وعربية

بقلم : محمود العزب موسى

في أسواق القاهرة ، على قارعة الطريق ، وبين أعداد موفورة من الكتب والصحف والمجلات ، تنام « الثقافة » مجلة ثقافية أدبية شهرية •• تصدر عن دمشق •

ولست أدري ــ أي والله ــ مدى الاقبال أو الانصراف عنها •• حتى البائع لا يعرف ثمنها بل لعله يجد في ألغاز الارقام في تقدير العملة والنقد فرصة سانحة لنشل القارىء وسرقة قرش منه عندما يرى اصراره على اقتناء صحيفة أو مجلة تصدر عن غير بلده الذي يقيم فيه •

ولسبب خارج عن الارادة ، قرأت عددا من الثقافة مجلة ثقافية أدبية شهرية ، توجت عددها بمقال قيم عن « الجهاز المجهول » ، لكاتب معلوم ، هو الدكتور محمد صبحي ابو غنيمة • ولست في مقام الحديث عن وفرة المعلومات التي تميز بها دكتورنا العظيم ، ومن بين أطباء العرب المعاصرين من بلغوا في اللغة نصيبا بعيدا أحسدهم عليه ، الدكتور ابو غنيمة والدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام وصاحب « قرية ظالمة » وقد نالت جائزة الدولة وقدرها الف جنيه مصري • ومنهم الدكتور احمد عماره طبيب أمراض النساء وعضو مجمع اللغة العربية وهو ذخيرة يبعده تواضعه عن التأليف ، والدكتور محمد عفت وهو متخصص في البوذية ويكاد يكون حجتها في الشرق أو أحـــد عشرة من الذين درسوا البوذية •• وغيرهم كثير •

أثارتني طريقة العرض التي تقدم بها دكتور أبو غنيمة للقارىء البعيد عن الطب : عرض مشوق ، وجزالة في الاسلوب يوائم جزالة المعاني التي كشف عنها • كتب •• لغة •• وعربية •

وهنا وقفت طويلا ، أمام موجة عاصفة اقتلعت اللغة العربية من مرساها الذهبي وألقت بها لغة •• متهالكة على قارعة الطريق ، وحملت العاصفة معها الكتاب المحدثين وأبعدت أصحاب الاسلوب والفكرة والرأي عن الميدان • وليس في ذلك غرابة اذ من شأن العاصفة أن ترفع الغبار وتثيره في الاجواء ولا تقوى على حمل القوي ودفع الاصيل • وليس في اللغة العربية ، عرج ولا عور ، اذ فيها سلامة وصحة وقدرة وحلاوة ، وليس فيها ضعف ولا خور ،

بل فيها قوة ونضوج وحيوية • واذا كانت اللغة العربية قد نجحت في معالجة دقائق العلوم فهي أجدر بالنجاح عندما تتصدى لشؤون الفكر والثقافة • فالعيب ليس فيها وانما العيب في أولئك الذين لا يستطيعون الاقامة تحت ظلالها ساعة من النهار يستطيعون ابانها الحصول على ثروة لفظية تعينهم على ممارسة أعمال الفكر في أسلوب واضح مستقيم •

ضاعت رصانة الاسلوب ، وصدأت أصالة اللفظة ، وحلت أساليب عرجاء عوراء ، وسكت عملة لفظية جديدة يسهل على الانسان تزيفها • والغريب في الامر أن هؤلاء العابثين يسلكون دروبا مظلمة من حجج لا أجد لها وصفا •• يقولون •• العصر جديد ، وبحاجة الى لغة جديدة •• غير هذه اللغة الجافة الميتة •

وهم على حق ، ذلك أن أصالة الفكرة لا تقوى على حملها الا لغـــة أصيلة ، أما الفكرة التافهة فمن نصيب الركاكة والسخف وكتب الصغار ••

وليس هذا ، ما رميت اليه بهذا الكلام •

وانما سعيت الى التنبيه الى خطر داهم يتهدد كيان العرب جميعا اذا ما استرسلوا على هذا النحو من الكتابة • الخطر الخطر الذي أشير اليه هو خطر عاصف يخشى منه على التراث اللغوي ليحل محله تراث جديد من الاساليب العامية وهي محلية حتى ليتعذر على أبناء الامة العربية فهم ما يكتب في جزء من أجزائها حتى تصير اللغة فيما بعد لغة جديدة تحتاج الى قواميس ومعاجم تكون المفتاح لمعرفة غاية الكاتب الاخ الذي يشاركهم الالم والامل •

وكان يمكن أن نسكت عن هذا التنبيه لولا أنني طالعت بروتوكولات حكماء صهيون ، ووقفت طويلا أمام الوسائل التي رسموها والخطط التي أعدوها لتدمير الشعوب المختلفة والقضاء على أبناء هذه الامم الى أن يخلو الجو في النهاية الى أمة واحدة وهي أنه الشعب المختار الذي وهبة الله كافة الخير في الحياة •

ومن بين الاساليب التي أقروها ، وقرروها باحدى دورات مؤتمراتهم الخبيثة افساد شأن اللغة وافساد الخلق • طالبوا يهود العالم بأن يتكاتفوا على اغراء صغار الرأي والفكر على اقتحام حصون لغتهم حتى يكون لعبثهم اخلال بمقدرات اللغة اذ أن اللغة هي ركن فعال في توحيـــد الصف وجمع الكلمة • ومن العجيب أن كتاب العرب الجدد أو المحدثين وقعوا في الشرك فاندفعوا في الطريق يهدمون أصالة اللغة ويفتحون المجال أمام التخلل في وسيلة التقرب والمفاجآت والتعبير والوحدة والتماسك •• وهي اللغة •

وقد اتجهت الدولة الى تنظيم الصحافة ، وكنت أتوقع أن تنهار هذه الاساليب المتهالكة وأن يلجأ الكاتبون الى الاساليب السليمة : تكوين العبارة ، والاقبال على المعرفة المكونة • ولكن شيئا ما من هذين الحلمين لم يتحقق الى يومنا هذا • •أقصد اليوم الذي أقيد فيه تلك الخاطرة • ليست غاية الشارع استبدال أسماء بأسماء بل غايته استبدال قوة بضعف ، ورجاحة بحمق ، وروعة بميوعة • غايته الانتقال بالامة العربية من وضع الى وضع ومن حال الى حال حتى تستكمل أسباب المتعة والعظمة •

ومن الاخلاص للدولة أن أنبه الى خطر بروتوكولات صهيون والى تآمرهم على اللغة ومن بينها اللغة العربية بل وفي أولها اللغة العربية وهي احدى الوسائل الفعالة لمقاومة السياسة الخفية التي ينسج الصهيونيون خيوطها الرفيعة الدقيقة ويلزمون اليهود بتحقيقها رغبة في الوصول الى أهدافهم وغاياتهم • واذا لم يفعل الكتاب ذلك من أنفسهم فانني أهيب بالدولة أن تعنى بهذه المسألة •• نحن في حاجة الى غذاء •• وجدي • وبحاجة الى لغة •• وعربية •

كفانا السنوات الطوال التي أضعناها في ارهاق العقول بفصاحة الالكن •

محمود العزب موسى

الامة مهد الانسانية

بقلم: زكي الأرسوزي

لكلمة انسانية معنيان ، أولهما في اتجاه العمق والآخر في اتجاه الشمول . فأما معنى الانسانية في اتجاه العمق فهواستكمال المرء شروط كيانه بالصدق والوفاء والمروءة .. الخ . وأما معنى الانسانيـة في اتجاه الشمول فهـو قيام مجتمع واحد بين البشر ، يعيش فيه العربي والصيني والزنجي والالماني جنبا الى جنب ، منضوين تحت شعار واحد ، خاضعين في معيشتهم لنفس العرف والاحكام .

ولكن هل من الممكن ايجاد الانسجام بين معنى العمق والشمول للانسانيـة ؟ واذا استحال الامـر أي المعنيين نؤثر على الآخر ؟ بل كيف نحقق أغراض العناية مـن الحياة على الوجه الاكمل ؟

ان الانسان ينزع بحكم تكوينه الجسماني الى الانانية، وكلمة « فرد » تعني باشتقاقها من « فر » معنى استقلال الاحياء بعضها في المعيشة . وفي الحقيقـة ان كـل فرد يحاول ان يثبت ذاته كائنا بين الكائنات . وانه يتخـذ من نفســه مقياسا للاشياء في معرفته اياها ، وفي تقديره لهـــا .

أي كائن حي لم يبدأ بالسعي الى حاجاته ، وبتقدير الحاجات بما لها من علاقة مع معيشته ؟ وتعبيرا عن هذه الحقيقة اشتق الذهن العربي كلمة « شيء » من شاء . هذا وان الاشياء تختلف باختلاف موقفنا منها ، تتضاءل اذا ابتعدنا عنها ، وتعظم اذا اقتربنا منها .

ولكن هناك مبدأ اخر تخضع لـه الاحياء في سلوكها ألا وهو « الايثار » أو « الغيرية » كايثار الام ثمرة فؤادها على نفسها مثلا . مبدأ الايثار هذا يظهر ابلغ فابلغ مع تقدم الاحياء في السلسلة الحيوانية . فمن منا لم يلحظ رابطة النوع عند الحيوانات ولا سيما الراقية منها ؟ الا نرى تعاون الذئاب بعضها مع بعض على درء الخطر عنها ضد العدو المشترك ولو كان في التعاون مجازفة في حياة كل من الافراد . ؟

وأما مبدأ الايثار نفسه فيقوم على علاقة فطرية بـين المعنى والصورة في الحياة. تبدأ العلاقة بين المعنى والصورة في الحيـاة بظهور الجسد . ان الجسد قاعدة الحياة في الطبيعة ، به تستعين على تثبيت ذاتها كائنا بـين الكائنات وهو وسيلة استجلائها أيضا . وليس العمر ، والكلمـة تتضمن معنى العمران الا بناء بنية الحياة لتكشف به عن مصممها اوضح فأوضح .

وظاهرة أخرى للعلاقة بين الصورة والمعنى هي العلاقة بـين الشعور وبوادره في الهيجـان . مثـل البوادر في انتشارها من انماء الشعور كمثل الجسد في تطوره من انماء الحياة . وليست العلاقة بين العبارة والمعنى في الفنون الجميلة الا امتدادا للعلاقة بين الجسد والحياة او بـين الشعور والبوادر في الهيجان ، وان كان الفنان يستعين هنا بالرمز عـلى انشاء العبارة كاستعانته بـكلمات ذات طابـع مصطلح في الشعر مثـلا . وكنتيجة للمبدأ ذاك ينزع المعنى الى الصورة وتستقطب الصورة المعنى ، فمتى تمثلت الصورة في الذهن بدر معناها من صميم الوجدان، والمعنى المتجلي حمل صاحبه على العمل بمقتضى طبيعته. على ذلك يقوم البناء الرحماني المشترك أي الاخاء . وعلى نفس القاعدة تقوم مستلزمات الاخوة والواجبات. وكلمة الى آخر ومن أمة الى أخرى ، فقد أصبح التفاهم قاعدة متعسرا بنسبة ابتعاد الانواع والامم بعضها عن بعض في أساسيين همـا غنى الحياة بالامكانيات وحرية الاصطفاء بانغلاق الغرائز بأغراضها ، واذا كان التفاهم الرحماني

« واجب » نفسها تعني ذاك،أي أنها تعني معنى الانبثاق، انبثاق الحالة القويمة من أعماق الوجدان. وكلمة « أخ » هي ايضا تعني باشتقاقها من عبارة التوجع « آخ » ان الوجع ينتشر بالعدوى بين الاخوه ومتى انتشر الوجع بينهم هبوا جميعا لرفع الحيف عمن يعانيه منهم فعلا وعندئذ يزول عنهم جميعا مصدر القلق .

ولكن المشاركة الوجدانية لا تقف على الوجع فحسب ، بل انها تتناول حياة ذات آفاق متعالية مما يجعل السباقين في سبراغوار الوجدان قدوة للمتخلفين في هذا المضمار. وهكذا تتجاوب النفوس فتتخطى بتجاوبها حدود دائرة الغرائز المغلقة بحاجاتها الى انسانية متسامية .

ولما كانت العبارة هي وسيلة المشاركة الوجدانية بين الاحياء ، وكانت هذه الوسيلة تختلف من نوع حيواني الى اخر ومن امة الى اخرى ، فقد أصبح التفاهم قاعدة التعاون على تذليل الصعوبات وعلى استجلاء كنه الحياة متعسرا بنسبة ابتعاد الانواع والامم بعضها ع ن بعض في العبارة .

وأما الاختلاف في العبارة بين الاحياء فيرجع الى عاملين اساسيين هما غنى الحياة بالامكانيات وحرية الاصطفاء بين الحالات الممكنة . وتبدو الامكانيات ، كل منها ، لدى التحقق ، نزعة والنزعة تتحول الى غريزة متى ثبتت العلاقة بينها وبين غرضها . وبتعبير آخر ، ان البيئة وهي جملة الاغراض تستثير الحياة فتتحول الامكانيات الى نزعات . هذا وان النزعة كاستجابة تجيب بها الحياة على منبهات البيئة تصبح غريزة اذا جاءت مؤاتية لغرضها . وهكذا يؤدي استقرار الاغراض الى تبلور الاحياء .

ولكن اذا كانت الحياة تبقى في الحيوانات مغلقة بانغلاق الغرائز باغراضها ، واذا كان التفاهم الرحماني بين أبناء النوع الواحد يبقى على حدود العدوى كانتقال الهيجان من كبش يلمح في الافق ذئبا فينقل مخاوفه الى القطيع ، فانها اي الحياة ، تنطلق في الانسان بانشائها الخيال انشاء يجعل منها ممتلكة لزمام أمرها . ان للخيال ميزتين ، ميزة قيامه مقام الغرض في استثارته امكانيات الحياة ، وميزة أخرى هي خضوعه للارادة فمن حيث أنه يخضع للارادة يذكر بموقف الاله من خلقه الكائنات : « فان أراد الله أمرا فانما يقول له كن فيكون » . ومن حيث أنه يقوم مقام الاشياء في استثارته امكانيات الحياة يمهد للانسان سبيل انشاء الحضارة ، سبيل السيطرة على الطبيعة وسبيل خلق ذاته بذاته ، بتحويله امكانياته وتنسيقها . فليس للانسان الا ان يقبل على احدى الامكانيات حتى تتحول من الضمير الى الوجدان . واذا هو اراد ان يجعل الحالات الوجدانية نسيا منسيا فما له الا ان يعرض عنها حتى تصبح كذلك.

هكذا ينشيء الانسان بالخيال بيئة طوع مشيئته فيلقيها كمجموعة رموز على الطبيعة ، متخطيا بذلك مقتضيات المكان والزمان ، بل هكذا يشترك مع العناية في تعيين مصيره .

ان اشتراك الارادة مع العناية في انشاء العبارة يجعل الاختلاف بين الصيني والزنجي والالماني أظهر فأظهر في سمات الوجه وفي مظاهر الحياة الانسانية (كاللغة والعرف والاداب .. الخ) . لما سألني أحد زملائي الصينيين في الدراسة عن عمره أخطأت في تفسيري سمات وجهه خطأ لا يقل في فداحته عما لو حاولت أن أفسر رموز اللغة الصينية .

ولكن ما دام الانسان يتمتع بالحرية ، أفليس من الافضل لبني نوعه ان يزيد القسط منها في انشاء العبارة، بحيث يتيسر للناس جميعا التفاهم والتعاون ؟ في الواقع ان العبارة التي يصطلح عليها الناس ذات جذور في الطبيعة ، وعلى قدر ما يقوم المصطلح على الطبيعة تفي العبارة بمهمتها ، وهي بعث المعنى متأججا حيا . مثل الاختلاف بين مجتمع ذي بنيان مصطنع وبين مجتمع أصيل كمثل الاختلاف بين الاسرة وبين دار الحضانة. ففي الاسرة تتجاوب النفوس فتنبعث من تجاوبها معاني الانسانية مشحونة بالمشاعر فالاب يتدرب على ان يكون منصفا وعادلا والام تغمر قلبها مشاعر الحنان والاولاد

يترعرعون في جو من المحبة والحنان والتعاطف ، بينما مهمة دار الحضانة تبقى على حدود التهذيب فقط •

وهاكم مثالين نوضح بهما وجهة النظر المتقدمة : فرنسا والعرب • تكونت فرنسا تكوينا تاريخيا ، اسمها مستعار من احدى القبائل الجرمنية (الفرنك) وشعبها مزيج من الغاليين والرومان والالمان •• الخ ، ولغتها تتألف من كلمات لاتينية محورة ، ومؤسساتها مقتبسة من هنا وهناك • هذا التكوين التاريخي لفرنسا يظهر اثره في فهم الفرنسيين للواجب ، الذي هو قوام العلاقات بين أعضاء المجتمع ، بدا لهم مفهوم الواجب كسخرة مفروضة على الارادة ، أما من قبل العقل واما من قبل الجماعة ، وهو في الحالين يفتقر تحقيقه تثبت الارادة عليه بدعامة خارجية •

وأما العرب فهم مرتبطون بعضهم ببعض برابطة القرابة ، جميعهم يرجعون بالنسب الى جد مشترك • وتعبيرا عن نشأتهم الطبيعية هذه اشتقوا كلمتي « امة وأم » من ذات المصدر ، فلغتهم ذات جذور في عبارة الهيجان الطبيعية،مؤسساتهم (العرف والشريعة والاداب الخ) • تقوم على استجلاء الحدس المنطويةعليهاكلماتهم •• الحدس التي استجابت بها الحياة على منبهات البيئة استجابة عفوية • هذا التكوين الرحماني للامة العربية هو ايضا يظهر من مفهوم العرب الخاص للواجب ، فالكلمة تفيد باشتقاقها من « وج » ان مدلولها الواجب ينبثق من أعماق النفس انبثاقا ، على مثال بدور الجنين من صميم الحياة • وكما ان الام تستكمل شروط كيانها بالانجاب والتربية ، فكذلك النفس تحقق ذاتها باداءها الواجبات • وهكذا تدعم الحياة الارادة على الخير ، بل هكذا تبرز وترسخ مقومات انسانية الانسانفيجو طبيعي تتجاوب فيه النفوس فتفيض بالمشاعر ، فترتقي على الموج الى المثل الاعلى •

ومتى ارتقى المرء مستوى المروءة فخضعت لمشيئته ميوله وغرائزه ، أصبح حكما نزيها في العلاقات بينه وبين الاخرين • وعندئذ تصدر عنه الاعمال والاحكام بما يقضي به الحق والعدالة •

ومع ذلك فان الاحتكاك بين الثقافات يؤدي الى خير كل منها ، فما ضمر في احداها قد ينجلي على ضوء ما ظهر في الاخرى • وقد ترتدع امة عن شططها بتأثير ثقافة غيرها • أفلم نستيقظ نحن العرب من سباتنا على موجة الحضارة الحديثة ؟ اولم تستحثنا تيارات هذه الحضارة المكشف عن عبقريتنا؟ولما استسلم العالم القديم (اليوناني والروماني) للملذات حتى الانهيار بدتدعوة (الاسلام ـ المسيحية) ، دعوة من عل تدعو لجمع شتات الحياة المنهارة على هداية المثل الاعلى • ولما امعن الناس في الزهد حتىا ضمور ارتفع صوت من أعماق الحياة يدعو الى العودة عن الشطط •

من المعلوم ان النوع الحيواني تتحدد معالمه بثبوت العلاقة بين غرائزه وحاجاته ، وكذلك الامة يصبح ابناؤها عبيد تقاليدهم باستقرارهم عليها • وشان التبادل **الثقافي بين الاقوام ان يستيقظ ممثلو كل منها من**سباتهم ، يقظة تيسر لهم بها ان يحرروا معنى ثقافتهم من طغيان العبارة عليها • « ابن الانسان رب السبت ايضا » ـ المسيح •

وثمة آفة اخرى يردع عنها الاحتكاك بين الثقافات وهي ان تجنح نحو الامكان متخطية حدود مستلزماتها تخطيا تخضع به لمقتضيات الشكل دون المعنى ، تبعالقانون العطالة (المادية) كجنوح الفقهاء في القرون الوسطى •

ولكن اذا كانت الثقافة ذات بنيان رحماني على مثال الاحياء ، فكيف يتم التبادل بين ثقافة واخرى ؟ •• بالتفسير لا بالاستعارة • ومثال حي للتفسير هو الجسد عندما يحول الىطبيعته مواد الغذاء تحولا تنمو بهالانسجة (بالتفتح من صميم داخلها) • ان الامم وان كانت تختلف في البنية وتتفاوت في نظام قيمها فانها تلتقي جميعا في الغاية التي هي المثل الاعلى ، الصورة التي فطرعليها الانسان • وقد عبر الاسلام عن حكمة وجود العلاقة

بين الثقافات بهذه الآية : « لقد خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » والتعارف يعني استجلاء كل من الاقوام نظام حياته على تجارب الاقوام الاخرى •

ان امر انبعاث الثقافة من الحياة وامر تعضدها في نظام مغلق على مثال الحياة نفسها يجعلها اشبه ماتكون بالانظومة (Symphonic) • حتى لكأن شؤون الامة تحمل معنى مشتركا هو منها بمثابة الروح من الجسد ، والمعنى يظهر كمنحى تنحوه الشؤون الانسانية في علاقتها بعضها ببعض داخل المنظومة ، مما يجعل الثقافة تستقل عند الاستعارة والاقتباس بنسبة صدقها في التعبير عن وجهة الامة في الحياة •

تلك حقيقة أهملها المسلمون بجعلهم ثقافاتهم المختلفة تخضع لنظام واحد فادى اهمالهم انهيار دولة الاسلام • تلك حقيقة اهملها الاقطاعيون بتقطيعهم اواصر الثقافة الواحدة ، فادى الاهمال الى زوال هذا النظام • كل امبراطورية لا ترعى الاخوة وما لها من تأثير على التفاهم والتعاون مآلها نفس المصير •

وها نحن نستعير مثالين أحدهما من علم الاحياء والآخر من التاريخ نؤيد بهما وجهة النظر المتقدمة : ان تصالب فرعين متباعدين من نفس النوع (الحصان والحمار) يودي الى ظهور البغل مما يدل على عقم الهجانة ، وان أسطورة بابل التي تشير الى الهجانة بقدر ما تشير الى الاختلاط في الكلام ، تشير الى العجز عن التفاهم الرحماني وعما ينتج عن هذا العجز من عجز على التعاون في السراء والضراء • واذا وصف العرب ثمرة التصالب بين عرقين متباعدين بالهجين والمقرف ، فقد أدركوا ما لهذا التصالب من تأثير على زيغ الحياة وما يثير هذا الزيغ من تعب وقرف •

هكذا لكل امة نظام حياتها المتبلور في سمات ابنائها وفي لغتها وما لديها من قيم اقيمت تعبيرا عن وجهة نظرها في الحياة •

اذن فما هو الصعيد الذي تلتقي عليه الامم ؟ بل كيف تتعاون الاقوام على تحقيق انسانية أكمل فأكمل ؟ على ايجاد حضارة تمكن الانسان من اداء رسالته أحسن فأحسن • ؟

تلتقي الامم على صعيد العلم والصناعة ، فما يدرس في المدارس الالمانية من علوم رياضية وطبيعية ، يدرس في مدارس اليابان أيضا • وما ان تخترع الولايات المتحدة الة حتى يعم استعمالها في جميع العالم • واما ما يجعل الامر كذلك فهو ان الالة والمعارف التي تبنى عليها تقومان بالمكان ، وما يقوم بالمكان يستقل عن وجهة نظر صاحبة الانسان • فالى ذلك يرجع السبب في انتقال العلم والصناعة عبر الاوطان • والى نفس السبب يرجع امر تقدم المدنية تقدما مضطردا • كل من الاقوام يضيف مكتشفاته العلمية ومخترعاته الصناعية الى التراث المشترك لبني الانسان •

ونحن نستخلص مما تقدم ان الانسانية في بلوغ كل امرىء مقومات فطرته الاصيلة وليس الامة سوى مهد تترعرع فيه الافراد من أجل بلوغهم تلك الامنية • وذلك يعني أن المحبة بين الاقارب هي وسيلة للتفاهم والتعاون على تحقيق المثل الاعلى الانساني •

واذا آثر اجدادنا كلمة « مروءة » على كلمة «انسانية» المشتقة من الانس ، فان الايثار يدل على عمق نظرتهم واصالتها • اذ ان الاجتماع وسيلة لغاية اسمى ، وهي تحقيق مقومات الطبع البشري ، الطبع الذي فطر عليه آدم ، والذي ورد في الانجيل تحت هذه الآية : « في البدء كان الكلمة » ، والذي تردده مآذننا ايذانا لكل صلاة : « اول خلق الله واخر الرسل » ••

زكي الارسوزي

خريف

شعر : علي الجندي

... خريف

يهوم حول شبابي الكئيب ،

ويجمع أحلامي الزاهية

نثاراً من الورق الاصفر

ويسري بروحي العجيب

فيجعلها شعلة ذاوية

تـذر رمادا على مئزري

خريف

يدب الى مضجعي

ثقيل الخطى كالحتوف

وكالأدمع

وينساب في ظلمة الاضلع

تواكبه من حياتي طيوف

توشوش يأسي في مسمعي

خريف ،

وأي خريف ..

تنهد في قلبي الموجع !!

Automne

TRNASPOSITION : PAR **COLETTE SOUHEIL**

Automne

Sans cesse ... il chancelle sans cesse

Autour de ma triste jeunesse

Transforme mes rêves éclatants

En de feuiles jaunies ... dispersées ...

Et pénètre en mon âme insensée

Qui n'est plus qu'un tison flétri

Semant les cendres sur mes habits ...

Automnc

Rampe, il rampe vers ma couche

Tristcment comme l'alarmc

Lourdement comme la mort

Comme les larmes ...

Et glisse parmi mes côtes

Dans l'obscurité des côtes ...

Avec son cortège noir

Quelques spectres de ma vie

Quelques spectres me chuchotent

Lc désespoir ...

Automne

El quel automne mûri ...

Soupira exténué

Dans mon coeur endolori .

مريضة

قصة بقلم : الدكتور محمد حاج حسين

استيقظت مع الفجر الفتيق لقس النفس ، يفتك بي شجن بليغ ، وتتقاذفني لجج عاتيـــة من الهواجس . وتأملت زوجي الشابة التي رقدت بقربي ، وقد أضاءت ثغرها ابتسامة سعيدة زادتها ألقا وجمالا .. ولا أعلم كيف انحدر الى أعماقي اشمئزاز كريه ، من هـــذه الابتسامة الفرحة ، وثارت بي موجة من الحقد الهائل على هذا الجمال الذي يغط في نومة وادعة .. ورأيتني أهزها بعنف ، وفتحت عينيها الكبيرتين ، وقد جال فيهما الرعب ، ولما بصرت بي سرت بها الطمأنينة ، وفتحت عينيها بتثاقل ، وفركتهما قليلا ثم قالت : صباح الخير يا حبيبي .

ولكنني شذرتها بقسوة ، ودمدمت بكلمات غامضة .. وكأنها أحست بما يعتمل في كياني من برم بها فتمتمت : ماذا تريد يا حبيبي ؟

وكدت أرفع يدي لاهوي بها على رأسها ، غير أنها رشقتني بنظرة كاوية من عينيها الزرقاوين ، وضمتني الى صدرها ، فسرت في عروقي رائحة هذا الجسد البض الذي طالما أجج بي كل الرغبات الملتهبة ، ولكنني تمالكت نفسي ، وتملصت منها مقاوما اغراء هذا الحسن التياه الذي خلب لبي ، وقمت الى النافذة أتطلع الى الاشجار في الحديقة وقد تواثبت عليها العصافير تستقبل الضياء ، وترتل له أغانيها الحلوة .

واندفعت ورائي ، تطوقني بذراعيها ، وهي تقول : ماذا بك يا مصطفى ؟

ـ كل شر ..

ـ بسم الله عليك ..

وقاطعتها بغلظة وهتفت : ان زواجنا غلط يا مديحة .

ورنت ضحكتها صافية فيها أنوثة داعية ، ولكنها ملأتني بالتقزز ، وأشحت بوجهي عنها .. بيد أن صوتها ترامى في مسمعي : ولكنني أحبك يا مصطفى .

ـ انني أتعذب .. فارحميني ..

ـ وماذا تريد مني ؟

ـ الطلاق . .

ـ هكذا بكل بساطة بعد أن كافحنا طويلا حتى توجنا حبنا بالزواج ؟.

ـ كان زواجنا خطأ .. ويجب أن نصلحه ..

ـ معنى هذا أنك أصبحت لا تحبني .

ـ الحقيقة .. انني ما زلت أحبك .

ـ ما معنى هذا الطلاق اذن ؟

ـ لراحة نفسي .

ـ وهل أزعجتك في شيء ؟

ـ انني أتعـذب .. وحياتي أصبحت لا تطـاق .. وضميري يلهبني بسياط من نار .. و ..

وأردت الاسترسال ، ولكنهـــا سارعت ، فتلمست شفتي ، وشعرت بنار القبلة تضطرم في جسدي ، فذهلت عن كل شيء ، وانجذبت اليها بكليتي أمرغ وجهي في صدرها الناهد الذي يزري بياضه بالمرمر . وأحسست بهمود هذه الفورة التي انتابتني ، ورتعت في جنة هـــذا الجمال .. وتمتمت : انني سعيد .. سامحيني يا مديحة.

ـ سامحتك يا حبيبي ..

ـ انني مستعد أن أضحي حياتي في سبيلك .

ـ لا أطلب اليك شيئا سوى أن تظل تحبني .

ـ أعاهدك على الحب الدائم ..

واندفعت اليها كالمجنون أغمرها بسيل دافق من قبلاتي

النهمة التي لا ترتوي من غضارة هذا الجسد الذي سكبه الله في أجمل تكوين ، وجلسنا نتناول افطارنا ، وقد تبددت هذه الوحشة الكئيبة التي عذبتني ، وتناثر هذا القلق الذي افترسني أباديد •• وماذا أريد من الدنيا سوى أن تكون مديحة بقربي تزقني حبها ، وتفيض علي من هذا الجمال التياه تلك الكنوز الشهية التي لا أعرف الى الارتواء منها سبيلا ؟••

وارتديت ثيابي سعيدا ، وخرجت الى محلي الكبير أبيع وأشتري ، وغمرت عمالي بابتساماتي ، ولاطفتهم بالحديث ، فقد كنت سعيدا حقا ، تجتاحني نشوة قريرة •• وجلست في مكتبي أحسو قهوتي ، وأتلذذ بنفث الدخان من « سيكارتي » وأطالع صحف الصباح ، وفجأة، ولا أدري كيف هاجمتني الوساوس ، وضربتني أشباح سود ، وتواثبت أمامي رؤى مكفهرة ، فكدت أختنق •• وحاولت التسرية عن نفسي ، بالطواف في مخزني الكبير، وملاحظة رواده ، غير أن الضيق الشديد جثم علي برهقه ، حتى كادت روحي تزهق •• وخرجت أتلمس الراحة في الطرق الغاصة بالناس •• ولكن الذي تعاورني ازداد حتى تمنيت الموت للخلاص منه ••

وفجأة وجدت نفسي بالقرب من بيت زوجي التي طلقتها للاقتران بمديحة التي سبهت فؤادي •• لقد شردتها مع أولادي الخمسة حتى يخلو لي الجو معها •• وما حيلتي •• وقد فتنتني بشبابها وجمالها ، وسحرتني برقتها ونداوتها •• وخفق لها قلبي ، وعرضت عليها الزواج ، فوافقت واشترطت أن أطلق امرأتي ، وأعماني الحب ، فاستجبت لها ، وهدمت البيت الجميل الذي شيدته على دعائم الحب الوثيق في سبيل نزوة طارئة •• ومن الطبيعي أن مديحة لم تتزوجني حبا بي ، لانني ناهزت الاربعين من عمري ، وهي لا تزال في العشرين تتفجر شبابا وأنوثة •• وعذبني الشك لاول وهلة في أنها ارتضت بي زوجا لها رغبة في مالي •• غير أنها أكدت لي مرارا أنها أحبتني ، وأخذت بشمائلي ، ووجدت بي الزوج المنشود حتى شعرت بالطمأنينة ، وازدهى بي الفرح لاستطاعتي جذب فتاة في مثل هذا الجمال •• ولكنني بعد الزواج انصب أهلها الفقراء علي كالويلات ، فلا هم لهم سوى أخذ المال مني باسم القرض الحسن ••

واذا أمسكت يدي عنهم نفرت مديحة ، ولوت بوزها ، وأذاقتني المر من هجرها •• وكثيرا ما كنت أحتقر نفسي لاهمالي أطفالي ، وتنكري لامهم التي أخلصت لي الحب في أيام الضراء•• غير أن رنوة من عيني مديحةالزرقاوين كفيلة بتبديد وخز الضمير الذي كان يلاحقني أحيانا ويسمم حياتي •

وازدحمت بي هذه الافكار وأنا واقف أمام بيتمطلقتي التي لم أرها بعد زواجي • ولست أدري كيف اندفعت الى الباب أرن الجرس ، وأنا مبهور الانفاس ، وفتحت هي الباب ، ولما رأتني كادت تشهق ، وتراجعت الى الوراء قليلا وقد ظللتها سحابة من الغم ، ولكنها قالت بلهجة مؤدبة : أهلا وسهلا • تفضل •

ودخلت ، وقدماي تصطكان ، وقلبي راعش ، وتهالكت على أقرب كرسي ، واستطعت أن أرفع عيني اللتين اتقد فيهما الخجل •• واستطعت أن أقول : كيف حال الاولاد •••

– بخير •

– وأين هم الآن ؟

– في بيت خالهم •

– كلهم ؟

– ما عدا أمينة •

وأمينة أحب أولادي الى نفسي لانها بكري • وهي في العاشرة من عمرها ، أسبغ الله عليها الجمال ، ومتعها بالذكاء ، وخفة الروح • ورفرف قلبي طربا لانني سأراها ، ولهذا سارعت الى القول : أين هي الآن ؟

– في غرفتها •• نائمة •

– تنام في مثل هذه الساعة !•

– لانها مريضة •

وصعقت وصرخت : مريضة •• بماذا ؟

– بالتيفوئيد • ولهذا عزلت اخوتها عنها في بيت خالهم ••

– ولماذا لم تخبريني ؟•

– وماذا يهمك من أمرها ؟

– أنسيت أنها فلذة كبدي ؟••

– وهل تذكرتها مرة واحدة منذ زواجك ؟••

وكدني عرق بارد ، واحتقرت نفسي ، ولعنت الساعة

التي انقدت بها لاهوائي الجامحة .. واندفعت كالاعصار المجنون الى غرفتها ، وانكببت عليها أقبلها ، وأشمها ، وأضمها الى صدري .. وفتحت عينيها الذابلتين وتمتمت .. بابا .. وكادت روحي تسيل مع هذا النداء الحبيب وقلت : نعم . بابا . يا حبيبتي ..

وأغمضت عينيها ثانية ، وغاص قلبي بين جنباتي ، ووضعت يدي على جبهتها المحترقة . وتمنيت لو أن الجحيم تتلقفني كفارة عن ذنوبي مع هذا الملاك الوديع .

وقلت : ألم تأت لها بالطبيب ؟

ـ خالها جلب لها الطبيب .

ـ ولماذا خالها ؟

ـ وأنى لنا لندفع أجر الطبيب وثمن الدواء ؟..

آه لو تبتلعني الارض ، وتريحني من وجودي . وقلت أخيرا : لماذا لم ترسلي أحد الاولاد الي لأحضر لها الطبيب ؟

ـ حاولت .. ولم أوفق .

ـ كيف ؟

ـ طلبت من محمد أن يذهب اليك ، فرفض .

ـ لماذا ؟

ـ قال لي : لو أن أبي يريد مساعدتنا لما تركنا .

وعذبتني آلام لا قبل لانسان بها . وغبرت بي هنيهات كنت بها فريسة للشقاء الدامي ، وفجأة فتحت أمينة عينيها الواهنتين ، وهمهمت :

بابا .. أنا أحبك .. لا تتركني .

ـ لن أتركك أبدا يا أمينة .

وأمسكت بيدي ، وأحسست بسعادة لا حد لها وقالت: أين كنت غائبا كل هذه المدة ؟

ـ كنت في سفر ..

ـ ولكن أمي قالت أنك تركتنا الى الابد .

ـ غير صحيح .. لانني عدت اليكم .

ـ ولن تفارقنا بعد الآن ؟

ـ يستحيل أن أفارقكم لحظة واحدة .

وأغمضت عينيها ،، وقد طافت على ثغرها ابتسامة راضية أضاءت وجهها بنور وهاج شع في نفسي حبا ورحمة . وأومأت الى أمها لنخرج ، وانسحبنا برفق بعد أن دثرتها باللحاف ، وطبعت على جبهتها قبلة أودعت فيها كل حناني وحبي .

وعندما استقر بنا المقام في حجرة ثانية لم أدع نفسي فريسة للعواطف المتضاربة ، وقلت فورا : يا فاطمة .. جئت أطلب منك الصفح عن جريمتي .

وأطرقت وقد شحب وجهها قليلا . واستطردت قائلا : أتضرع اليك باسم ذكرياتنا المشتركة ، وعشرتنا الطويلة ، أن تغفري لي .

ونظرت الي ، وقد ماج في عينيها طيف من الالم المكبوت ، حتى تجسدت آمالي لوعة خرساء . وهززتها برفق وهتفت : قولي كلمة واحدة تجعلينني بها أسعد مخلوق .

ـ وما الكلمة التي تريدني أن أقولها ؟

ـ قولي : وافقت .

ـ على ماذا ؟..

ـ قولي هذه الكلمة .

ـ طيب . وافقت .

وقبلت يديها ، وبللتها بدموعي ، وتهدج صوتي : أنت ملاك . انك أنبل انسانة . ولقد أجرمت كثيرا بحقك ، ولكنني سأعوضك بحبي واخلاصي عما سببته لك من آلام.

ـ ما معنى كل هذه العواطف الآن ؟

ـ وضح لي الطريق .. ان زواجي الجديد كان جريمة بحق نفسي ، وحقك ، وحق أولادنا .

ـ ومع هذا تزوجت .

ـ أخبرتك أنني اقترفت جريمة ، وأنا شديد الندم..

وأسرعت الى مديحة ، وكانت في أكمل زينتها ، تتهيأ للخروج . وقالت ضاحكة : أنا ذاهبة الى الخياطة .

ـ اذهبي ولا تعودي .

واكفهرت سحنتها ، ورجفت أهدابها ، وتمتمت : لا شك أنك تمزح .

ـ أبدا .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعذريني يا مديحة .. زواجنا غلط ..

ـ ما هذا الكلام الفارغ ؟

ـ أنت طالق .

وزمت ما بين حاجبيها ، وقذفتني بالشتائم .. وهرعت الى أم أولادي ، وأعدتها الى عصمتي ، وتدافعت بي الرحمة والحب والحنين وأنا أضم أولادي الى صدري .

محمد حاج حسين

الشعر والجمال

شعر : محمد رشاد رويه

تتراءى الاشـــياء للفنــــان في اطـار الشعور والوجـدان

فيرى السحر والجمال يحيطا ن بـــه حيـث تنظـر العينـان

بينما السحر والجمـال المطـلا ن عليـــه مـن نفســه ينبعـان

ويـرى القبح حيث لا قبح الا ما تفشى في جـوه من دخـــان

هـكذا نفســه تلون شتى مـــا يـراه بلونهـا كـــل آن

رب شـــيء رآه أمـس جميـلا ما له في الجمال والسحر ثاني

لا يرى اليوم فيه لونا ولا معـ ـنـى جديرا منـه بالاستحسان

ليس في أذنـــه عويل الثكالى حين يطغي السرور الا أغانـــي

والحســـاسين والبـــلابـل تستبكيـــــه في غمـرة مـن الاحـــزان

ولعـــل الطـريـد يأنـــس بالليـــــل وأعـدا أعدائـه القمران

صـــور نستشفهـــا ونــــراها مـن خـلال انفعالنا النفسانـــي

فنعير الاعيـان مـا هـو فينـــا مستقـر وليس في الاعيـــان

رب فتانـــة مفاتنهـــا لـــم تـك الا في خاطـر ولســـان

خلـع الشعر والخيـال عليهـا فتنـة مـن تصـور وافتتـــان

ونمير مــــا كـــان الا سرابـا لو تحررت مـن هوى وأماني

أيهـا المعـرضات تيهـــا ودلا بعض هـذا العقوق والـكفران

ان للشعر لـو ذكرتـن فضـلا ليس ينسى عـلى حسان الغواني

هـو أحيـا جمالهـن وغنـا ... ه وأبقـاه رغم أنف الزمـان
وكثير مـا راح ينتحـل الحسـ ... ـن بوحـي الهوى لغـير حسان
مـا رأينـا ليلى تخلـد قيسـا ... بصباهـا وحسنهـا الفتـان
بـل قيوسا يخلـدون ليالـي ... بالقوافـي وخالـدات المعانـي
يتلاشـى الجمـال الا بقايـا ... خالد الشعر خصهـا بالامانـي
صورتهـا عواطـف وميـول ... جامحات النفـوذ والسلطـان
مثلتهـا كمـا تمثلهـا في ... حينـه ذلـك الخيـال الحانـي
وهي في الواقع الصحيح تهاويـ ... ـل عيون الرضى وسحر البيان
أفكانت عرائس الشـعر حورا ... هبطت من خيامها في الجنـان
خلق الناس من تراب وصيغت ... من كريم الياقوت والمرجـان
فشـذاها روح الربيع ومـا في ... نسمات الربيع مـن ريحـان
وصـداها مـا رددتهـا سواقيـ ... ـه وأطيـاره مـن الالحـان
والثغور اللميـاء كانـت قواريـ ... ـر مـن رحيـق الدنـان
ووميض العيون بـرق أمانـي ... ومنايـا فيهـن تلتقيـان
كل هذا في الشعر وحي خيال ... يتغذى من فيضـه الروحـان
حلق الشعر بالجمـال فأعـلى ... قـدره فـوق واقـع الانسـان
حسـن مـا تـوده مقلتـاه ... وعريق في القبح مـا تـكرهان
تلك عين الرضى وذي عين سخط ... وهمـا في الشهـود تختلفـان
ولقد ينكر الجمال جميـل الـ ... ـشعر حتى يشتط في النكـران
ولعـل النكران بالشعر يفضي ... بعـد طـول الـولاء للعصيـان
فاتقي أيهـا الجمـال جحودا ... أنت فيـه عـلى كيانـك جاني
ينسخ الشاعر المقاييس أو يمـ ... ـسخ مـا شاء وهـو غـير مداني
قل لغر الجمال لو كفـر الشعـ ... ـر بـه فهو مائل الظـل فاني
مبهم السر غامض الروح عـيـ ... أعجمي يلغـو بلا ترجمـان

اللاذقية : محمد رشاد رويحة

مع الفجر

قصة بقلم محمود الخطيب

« الانسان الذي يستهويه التطلع الى النور الباهت لا يؤنسه النظر الى اندلاع نور الشمس ، وآية ذلك أنه يكون ضعيف القلب والارادة • لذلك تجده يضع أمام ناظريه حجابا قد يكون في معظم الاحايين أسود حالكا ••• » •

كان يخيم على الريف ظلام مطبق ، وتهب في قريتنا أعاصير شديدة ، ونبرات صوت أبي تصرخ في الطريق الموحش بقوة :

ـ امش يا ولد •

فاحتسبت لصرخته وارتبكت ، وأحسست بأطرافي تتراخى فهرولت مسرعا •

ودار في الليل البهيم نعيق « بوم » وقطقطة باشق وسمعت عن قرب عواء كلب وليد فاعترتني موجة خوف قوية• وأحسست أثناء سيري بتلاشي وجودي عن الطريق وأنا أمر بذلك « الشريط » الطويل المؤلم •• منذ سنوات خلت •

* * *

كانت تلك الساعة هي نقطة التحول في حياتي •

كم هو قاس •• سقطت بين يديه كالقتيل •• لا حركة ولا شعور •• وأنفاسي ضئيلة تخرج بضيق •• وأنا مطروح على الارض مغمى علي •• والكل يبكي •• الكل منهم •• أمي •• أشقائي •• جيراننا •• الا هو •• هذا الاب اللئيم الذي لا يرحم •• كم أنا أبغضه •• وكم أتمنى أن يموت •• آه •• ما أحسن القدر لو أنه يقع الآن جثة هامدة ، فأراها ملقاة على الارض بلا أنفاس ولا شعور •• بلا حركة ولا حياة •• كالخرقة البالية ، لا يصلح لشيء • حتى جبروته هذا سيندثر كذرات « الطباشير » •

* * *

كان ذلك منذ زمن بعيد •• لما ألفيتها تخطر على مرآي بقدها الجميل تميس كما تميس أعواد القطن مع هفهفات النسيم • هي ابنة جار لنا •• مثلت على بداية عام نضوجها الاول •• جميلة بريئة •• وادعة لطيفة •• تجمعت فيها مفاتن المرأة الكاملة منذ الحداثة •

على أننا تعارفنا صغارا •• منذ أحسسنا بوجودنا على مسرح الحياة •• وكان كل شيء بيننا مجرد لهو •• لم تمسسه يد العبث أبدا •

ومضت بنا الايام ، فتخطينا عهد الطفولة ، قليلا قليلا ، حتى وقفنا على صدر الشباب فطفحت هي جمالا وتلونت شفتاها بحمرة الشقائق ، وطفحت أنا خشونة فاكتسبت بلون البرونز • وعهد لنا الزمن منذ تلك الفترة بقلبين متحابين هما قلبانا ، أنبت عليهما الدهر حدأة العشق فالتمسنا الاعذار لبعضنا في كل مكروه • واكتملت لكلينا سعادته في اختمار اللذات دون أن يشتط •• فتلاقينا على صعيد الانفراد مرارا حيث بثثنا الشجون وحبسنا آهات اللذات في قبلات طويلة • واعتملت في قلوبنا كوامن الايام فتذوقنا حلاوة العشق في ظلال « السنط » وتجاذبنا الافاكيه في كل حين ، وحسبنا للقدر أعظم حساب لما أغدقه علينا من مباهج •

« على أن الساعات التي تنقضي من عمرنــا في تلك الاوقات ، ما هي ا لاأطياف سرعان ما تمر علينا دونما نحس بها أو نشعر ، غير أنها تترك في أعماقنا ذكريات جميلة » •

ودأبنا فيما يحدث لنا من بغائض ، نتلافاه كما نتلافى نقطةالخطر فنستدير فيحلقة محدودة لنتصافحمستبشرين كأن شيئا لم يحدث •

ويذكرنا صياح الديك مع كل فجر بموعدنا فنستقبل رطوبة النسمات برقة ونهض مغتبطين من أجل التلاقي ، فنجتذب الاحاديث من كل حدب لا سيما أحاديث « الهوى » ثم نقتطف القبلات من كل صوب لا سيما في وقت السحر •

ونحن حيث نغور في بحر الغرام نشق فيأعماقه أخاديد تتجمع فيها اللآلىء في قالب محفوظ ، ذلك أننا ننضحها برواسبها بعد برهات فنستعيد المناجاة ونكرر العمل • وكنا سعيدين ، لكأن زورق الحب الذي يقلنا ثقل على الامواج مع الزمن فتهادت له مياه البحر ، ولم تحركه عاصفة •• لانه ولهان !••

* * *

واستمرت العلاقة بيننا فازدادت توطدا •• وتحركت في داخل كل منا عوامل قوية ملتهبة ، فقالت لي ونحن نتداعب ذات أصيل :

ـ منصور ، أليس لهذا الحب من حل جميل ؟ !

قلت :

ـ وهل هناك حل أجمل من الامل في الزواج يا زينب؟

(فانفرجت شفتاها عن ابتسامة رضى اختلطت معها آهة لذة) •

وتلاشت التساؤلات ونحن نخرج الانفاس علىأصوات زقزقة الطيور فوق أغصان « الجزورينا » فانقلبنا نحو الترعة لنفترش الحشائش دون أن نشعر • واهتزت فينا عوامل الحساسية ، حيث تحسست بيدي رياض النهد وبياض الجيد فاستسلمت لي بكل أحاسيسها وأسبلت أهدابها بلا شعور ، فشعرت بقداسة الطهر تتملكني رويدا رويدا •

وودعتها في ذلك الاصيل فألفيتها تبتعد عني وهي تميس كالسنابل ، فيها أنوثة وفيها سحر •

وتكشفت لدينا ستائر الغموض فبتنا نتبادل الاحلام ونعد نجوم الليل في كل ظلام ساهرين ، لكأننا نستخلص من كل هذه التخيلات صورة للمستقبل واضحة المعالم :

وماذا في ذلك لو تزوجنا ؟ ! •• لن يرفض والدي ، ولا والدها ، وما دمنا قد نشأنا معا منذ الصغر وترعرعنا في نطاق « الجيرة » التي تولدت عنها شرارة حبنا ، فلسوف ، أي والدينا ، يباركان هذه الخطوة •

وجالت في مخيلتي صور شتى تعيد وتوضح كل مشهد لي مع زينب :

تلك المخلوقة الجميلة ، ذات الوجه الضاوي ، التي أنبتتها أرض الريف فألبستها حلة من بياض القطن •• ومنحتها تأود أشجار « الجزورينا » ووضعت فيها لباقة الحركة وطلاوة المنطق •• كم أنا سعيد بها •• ومغتبط لمرآها في كل حين •

ويشجعني سكون الليل علىالتفكير بها فيدفعني (شريط خيالي) نحو قدها المشوق بتؤدة لألتحم به في معركة بسيطة ، فأنقلب في الفراش تحرقا وتعطشا •• منتظرا لحظة السهاد •

ومرت الايام بلا حساب ، لان حسابها يكلفنا من الوقت ما نحن بحاجته لبث اللواعج والشجون • فنسيت الزمن •• ولم أتذكره الا على أصوات الكرابيج •

حدث ذلك في ذات صبح ، حيث البيت خال ، والدنيا تتلفع بملاءة من نسمات السحر ، وأنا وزينب واقفان على باب الجدار الخارجي نتطلع الى قطعان الطيور وهي تغزو حقول الريف فنضحك فرحين ، ونتطلعالىأشجار « التين » فنسمع حرتقة أوراقها • وجودنا في تلك البقعة بمكوثنا وقتا طويلا ، فدب بي الملال ، قليلا قليلا ، حتى أشرت اليها بالدخول •

وتمتمت أثناء عبورها بصوت خفيض فسمعتحشرجة صوتها تصب في اذني كلمة : « لماذا ندخل ؟! » ، فاستطردت أخاطبها بعد أن ألفيتها مرتبكة مصفرة :

ـ اتخافين يازينب ؟!

قالت بعد ان تفرست وجهي :

ـ وهل أخاف من زوج المستقبل وحبيب العمر !!

قلت :

البقية على الصفحة ٣٥

غادة الأوراس

شعر : محمد الجنيدي

« مهداة الى جميلة بوحيرد »

مرهف .. رائع الصدى .. مثل حد السيف وقعا على الدجى ومضيا

رددته سماء أوراس فانداحت سماء له .. وهلت ثريا

وتناهى لنا .. فحينا حسبناه قريبا منا .. وحينا قصيا

حاملا قلب قبرة ترقى على صهوة الشعاع رقيا

فاذا النجم ينسج الجن منه وترا راعش السنا عبقريا

واذا النبع ألف حنجرة بيضاء تشدو به رقيقا شجيا

واذا كل قصبة في فم الجدول ناي .. وكل كاس حميا

واذا كل زهرة في بلادي قبلة في فم النسيم وريا

* * *

... قبل هذا ، كانت تطل على الافق ... تحييه بكرة وعشيا

وتمني جناحها بنسيم الفجر عذبا ... وبالشعاع نقيا

فأتتها مع الضحى واصطفتها شمس أوراس سرها سرمديا

يوم شقت ضلوعها عن فؤاد رف كالبرعم الزكي زكيا

واستوى في يمينها ... تغدق عليه شلال طهر سخيا

غسلته ... يافرحة النور بالنور زكا مبسما وطاب محيا

* * *

ودجا الافق ••• واكفهرت نواحيه ••• ودوت فيه الرياح دويا
فاحاطت بها الاعاصير هو جاء ••• وأهوت على الجناح هويا
أخرجي سرك الرهيب الينا يابنة الشمس ••• أخرجيه جليا
نحن صوت الدمار في الارض ••• لا نبقي على دربنا الملطخ حيا
ينبت الشوك حيث مرت خطانا ويموت الريحان غضا طريا

★ ★ ★

ضوء عيني فدى لاوراس ••• للبرعم يغفو على ثراه هنيا
للندى ••• للشعاع ينساب سحرا في مآقيه ••• للسحاب رخيا
لنسيم يختال حرا طليقا بين أرجائه ••• ويمضي حيا
للثرى ••• يشرئب طودا من الكبر ••• فيلوي رأس الاعاصير ليا
رفع الكبر للسماء ، وأرساه جبالا ، وهزه مضريا •••

★ ★ ★

سره ؟ ••• صنته بقلبي طفلا وتعهدته بعيني صبيا
فخذوا مقلتي من وجهي الذاوي ••• خذوا قلبي الشجاع الوفيا
سر أوراس لا يذاع على الشوك ••• فلا تعدلوا بسري شيا

★ ★ ★

ومضت ••• تفتح السجون لها بابا الى ذروة الخلود مضيا
وتطل الآفاق من فتحة الجرح تعب الشعاع بكرا نديا
فيصير الحديد ريشا قويا في جناح يلقى الحديد قويا
ويرف اللظى سلاما وبردا وربيعا في وجنتيها بهيا

محمد جنيدي

الصفصافة المستحية

لا ذبلتِ ، صفصافـــة حلوة | تهمي على بستاننا ظـــلاً
لذتُ بها وارفـــة تنحني | فوقي ، كأم ، أرضعت طفلا

* * *

صفصافة أنثى ، فمـــا تأتلي | تنظر في المرآة ، في الجدول
تلوح كالخجـــلى ولكنها | قد عرت الساق ولم تخجـــل

* * *

كأنها عاشقة أطــرقتْ | مائلة برأسهـــا المثقل
فانتثرت لمتهـــا فاختفت | في غمرة من شعرها المرسل

* * *

غرستها أمس، ورويتهـــا | من عرقي المنهمر الهامي
يا عجباً ، كيف غـدت طفلتي | أمي التي تحضن احلامي

* * *

عرج عليها يا رسول الهـوى | في مفرق الدرب الى الجنـــهْ
وحيّها ، وقل لها : إنـه | في غاية الشوق ، .. ولكنهْ

محمود البارودي

لاريسا

لـ « انطونينا كوبتيايفا »

تعريب : ذكية الصوفي

ننشر خلاصة قصة انطونينا كوبتيايفا جرأة القسم الاخير لسلسلة « ايفان ايفانوفيتش » ذات الثلاثة اجزاء ٠ يجري القسم الاول للقصة في اقصى الشمال ، حيث يدير الجراح ايفان ايفانوفيتش أرجانوف مستشفى المنطقة ـ لقد جعله حبه الزائد لمهنته ، وانسانيته في معاملة مرضاه وتعقلـه ، وعدم تساهلـه محبوبا من الجميع ٠ ولذا لايستغرب حب فاريا المرضة الشابة له ٠٠٠

أما القسم الثاني للقصة فهو يصور سنين الحرب ٠٠ في احـدى مستشفيات المنطقـة الحربيـة ، يعمـل ارجانوف وفاريا مع طبيبة جراحة شابة تدعى لاريسـا فيرسوفا ٠ التي تتميز بجمالها الفتان الى جانب مهارتها الفائقة ٠ لقد شعر ارجانوف بميل الى الطبيبة الشابة ، غير أن وقوع حوادث مشؤومة كموت زوج لاريسا ، ثم موت والدتها وابنتها البكر ـ فرقت بينهما طويلا ٠٠

ووقعت حوادث القسم الاخير بعد الحرب ٠٠ حيث نرى ارجانوف وفاريا التي أصبحت زوجته ولاريسا ، نراهم في أيام عارمة بالثورة والاضطراب ٠

كان صوت لاريسا باردا ، وبعيدا عندما قالت :

ـ صباح الخير ٠

ـ انها تستقحبني ولا شك ، تماما كفاريا ٠

هذا ما جال في خاطر ارجانوف ٠ وبينما هو يضغط على يد المرأة الشابة ، كان ينظر مليا الى عينيها المحاطتين بتجاعيد ناعمة تسهل رؤيتها في النهار٠ولاحظ في زوايا فمهـا خطوطا رفيعـة ، خطها مقص الاحـزان والاعوام ٠ ولكن ماذا تهم ارجانوف كل هذه التفاصيل، ما دامت لاريسا موجودة هنا امامه انـه بحاجة قصوى اليها ، بـل انه لا يمكنـه الاستغناء عنها في مثل هـذه الاوقات ، أوقات الازمات النفسية ٠

وما لبث أن قال :

ـ جئت لحضور المجلس، وابتسم سعيدا مسرورا، كأن كل ما يهمها هو هـذا الاجتماع ، وحضوره ، هـو اورجانوف ، المدرس في كلية الطب ، ذلك المجلس ٠

ـ فأجابته لاريسا دون ان تبادله سروره أوبالاحرى دون أن تجد القوة لتبادلـه اياه ٠٠ وأنا أيضا حضرت مشاورة طبية في العيادة ٠٠ وما كانت لتفصح بالطبع عن سبب وجودها هنا ٠ وأردف اورجانوف

ـ لقد قرأت مقالا عـن رسالتك ٠٠ انـك تحلين مسألة هامة جدا ٠

كان يتكلم ، دون ان تفارق عيناه وجهها كما لو انه يريد ان يحفر في ذاكرته كلا من ملامحها ٠

فأجابتـــه دون أن تترك اللهجـة الرزينـة التي اتخذتها ٠٠

ـ لقد مضى علينا زمن طويل ونحن نفتش عن حل لهذه المشكلة ٠٠ ورتبت خصلة شعرها العاتية ٠٠ وفجأة٠٠ راودتها فكرة٠٠، بعد قليل ، ستكون معه،في الاوتوبوس وسيحملها الازدحام على أن يكونا متقاربين، بل متلاصقين ٠٠ ولمجرد هذه الفكرة ، أحسست لاريسا بالدم يصعد الى وجهها ، وتسارعت دقات قلبها ٠٠ وأخذ عرق خفيف يتصبب على جلدها المحمر ٠٠

وما لبثت أن انسحبت من صف المسافرين ، الذين كانوا ينتظرون الباص ٠٠ لم يدفعها الى ذلك شفقتهـا على فاريا ٠٠ ولا خجلها من الناس ، بل حنقها البالغ من الضعف النسوي ، الـذي خشيت منه عـلى نفسها من الانزلاق ٠٠

ـ لقد نسيت تماما يجب أن أذهب ٠٠ قالتها بصوت منخفض دون أن تنظر الى ارجانوف الـذي لحق بهـا ، وأضافت وهي تمد يدها لتقطع كل حديث ٠٠ الى اللقاء ياستاذ !

فظن أنها تسخر منه عندما نادته يااستاذ ٠٠ وراح يسألهـا :

ـ قولي لـي يا لاريسـا بتروفنا ٠٠ مـا رأيـك في عملي ؟! ٠٠

كان انفعال ارجانوف الذي فضحه صوته ، شديدا ، وكآبته بادية على وجهه ، ممـا حمل لاريسا عـلى البقاء ومتابعة الحديث ٠

ـ من أية وجهة ؟

ـ لانني ٠٠ لانني ٠٠ أتجه الى جراحة القلب ٠٠ وانقطع صوت ارجانوف ٠٠ انه يخشى أن يسمع مـن

يسمع من لاريسا ما كان يجرحه من فاريا ٠٠ سيكون حينئذ ولا شك الحكم عليه بالاعدام ٠

ـ لقد كنت دائما بالنسبة الي ، معلما في الجراحة العامة ٠٠ ولا أزال أحفظ في مخيلتي صورتك ، عندما كنا نعمل معا في المستشفى ٠٠ وانخفض صوت لاريسا شيئا فشيئا ، وحاولت أن تخفي ما بها من الاضطراب ، وتكلفت الابتسامة ، غير أن فمها لم يسفر الا عن انفراجة حزينة صفراء ٠٠ انني كثيرا ما أذكر عمليات الصدر التي كنت تقوم بها ، قالت ذلك وقد تذكرت فجأة كيف نشأ شعورها نحو ارجانوف عندما كانت تساعده في غرفة العمليات ، وصاحت بقوة لا ! ٠٠ وهي تتبع بنظرها تلك الكتلة البشرية تدخل الاوتوبوس ٠٠ وتابعت ٠٠ اني أرى بأنك كثير الخبرة في الجراحة العامة ، ولذا ، لم أستغرب عندما رأيت في المكتبة مؤلفك عن الابحاث القلبية ٠

فاغتنم ارجانوف الفرصة ، وهتف مستفسرا ٠

ـ هل اشتريته ؟!

وأخذ يراقب تعابير وجه المرأة الشابة ، وهو يفكر ٠٠ ان قراءتها كتابه تدل على شغفها أو بالاقل على اهتمامها بانتاجه ٠٠

ـ بكل تأكيد ٠٠ ألا تستغرب عدم تلاقينا مع اننا نسكن جميعا موسكو ، منذ زمن طويل ، ونحضر كلانا اجتماعات جمعيات الجراحة ٠٠ انه لجميل ان نعمل ونكتب نحن الاثنين ! قالتها وابتسمت ابتسامة شاحبة تنم عما في قلبها من مرارة ٠ الوقت يمر بسرعة غريبة ، لا سيما وان ايامنا مملوءة الى درجة ٠٠ واستطردت بحدة ٠

ـ انني لم اشتر كتابك فحسب ، بل قرأته وأخذت رؤوس أقلام عنه انه مغر

ـ شكرا يا لاريسا بيتروفنا شكرا ! ٠٠

ـ ولماذا بحقك ؟! وانقبض وجهها ، وفجأة وجهت اليه نظرة تشف عما يكنه قلبها من المحبة الصادقة له ٠

ولما عجزت عن اخفاء ما يعتريها من مشاعر ، هتفت قائلة : هل كنت تشك في نفسك ؟

كانت نبرات صوتها تدل على انها فخورة به ٠ وزال فتورها المصطنع برهة من الزمن ٠٠ وما لبثت ان قالت بسرعة الى اللقاء ٠٠ ودون ان تنتظر جواب سؤالها ، اتجهت نحو العيادة بخطا متعثرة، وكأن نظرات ارجانوف التي تتبعها تضايقها ٠٠

كانت تتحاشى مقابلة هذا الرجل ٠٠ وتخشى بقاءها قريبة منه ، وتضطرب لدى رؤيته ، دون أن تدري لذلك سببا ، غير أنها ما أن شعرت بأن أشجار (ديفتشي بوليبه) حجبتها عن ارجانوف حتى تمنت من كل قلبها لو انه يتبعها ، ٠٠ ولكنه لم يفعل ٠٠ وهل يستطيع ذلك ؟ وما ان تقدمت بضع خطوات حتى احست بتعب مفاجىء ، فاقتربت من مقعد وألقت بنفسها عليه ٠

من يستطيع ان يهتم بآلامها ؟ من يستطيع أن يساعد امرأة ، تقتلها الوحدة، وهي في أوج تفتح قواها الجسمية والنفسية ؟ ، وبقيت لاريسا جالسة ، منهوكة القوى ، يداها على ركبتيها ، هاتان اليدان اللتان انقذتا ابان الحرب ، الآلاف من الجنود ، واللتان استمرتا ، منذ ذلك الحين على عملهما النبيل ٠٠

كل ما حولها يضج بالحياة ، فالاوراق التي اصفر بعضها ، من أولى نسمات الخريف ، ترسل حفيفا لطيفا ، مؤنسا في الاحواض ، الازهار ، ذات الالوان ، تجلب الانظار ، والشابات ، والشبان يمرون ، ٠٠ ووجوههم الفارهة ، الطافحة بالبشر حينا ، وبالاهتمام حين آخر ، ٠٠ تعبر عن ثقة كبرى ، وآمال عظيمة ، وجريئة ، وأمان لا حد لها ٠٠ هي ذي امرأة مسنة ، يغطي رأسها منديل أبيض ، تتقدم من المقعد ، وتجلس قرب لاريسا ٠ أخذت تفحصها ، وتمعن النظر فيها ٠٠ وما لبثت أن قالت لها:

ـ لماذا أنت حزينة الى هذا الحد ، أيتها الام الصغيرة؟ هل رسب ابنك في مسابقة القبول في الجامعة فاضطربت لاريسا : انها المرة الاولى التي يعاملها فيها شخص غريب كأم ٠٠

وأخذت تفكر : ولكن في الحقيقة ٠٠ انني أم ٠٠ غدا يبلغ اليوشا الخامسة عشرة وتانيا لو عاشت لبلغت السابعة عشرة ونيف ٠٠ ونهضت ٠٠ وهي تجيب المرأة بصوت حزين ٠

ـ لا ! لم ينه ابني بعد دراسته الثانوية ٠٠ وأخذت تفكر ٠٠

لا داع للذهاب الى العيادة ! ٠٠ واتجهت بصورة آلية نحو ديرنوفود يفتشي هي ذي الاسوار القديمة المصنوعة من القرميد الاحمر ! ٠٠ وهناك وراء جدار الدير ، تمتد المقبرة ٠٠ أومأت لاريسا برأسها تحية للحارسة ، واجتازت الباب الكبير ٠٠ رخام الاضرحة ٠٠ ، أشجار السرو ، الصلبان ، طاقات الزهر التي تنشر رائحة الزهور الذابلة الحزينة ٠٠ كل شيء هنا يوحي بالهدوء الحزين والغم ٠٠ وفي الاعلى ينتصب الجدار المرتفع ذو النوافذ الضيقة ٠٠ كم من عظماء يرقدون هنا : كتاب ، رسامون ، قادة ، فنانون ٠٠ ووقفت لاريسا ، وأجالت طرفها فيما حولها ، لماذا هي هنا ؟ هب أنها أم ذات حياة عائلية محطمة ٠٠ هب ان الرجل الذي تحبه ملك

امرأة أخرى ·· وانها لن ترى السعادة ابدا ·· لقد فات الوقت للتفكير بمثل هذه الامور ·· أجل لقد فات الوقت اذ انه يقال : حياة المرأة ليست الا اربعين ·· وعمرها الآن ثمان وثلاثون ! اذن ، لم هذا الضيق لم هذه الآلام ·· ما دامت حياتها قد انتهت ··

ولكنها ما لبثت ان صاحت بصوت مرتفع لا يخلو من حقد ·

ـ خطأ ! انه خطأ الاعتقاد بأن كل شيء ينتهي في الاربعين · لماذا يجب أن نؤمن بمثل هذا اللغو فالرجال لا يعترفون بأنهم مغلوبون على أمرهم في الاربعين ·· فهل أنا أعمل أقل من رجل ؟! هل ربيت ابني تربية سيئة؟ ·· لقد كانت أعمالي تأخذ كل وقتي ·· أما الآن فاني نهضت بعض الشيء ·· وتنفست ملء صدري ، وفكرت بنفسي بعض التفكير ·· فمن يجرؤ أن يقول لي الآن بأن الوقت قد فات ·· ولم يبقى لي الا ان افتش لنفسي عن مكان في المقبرة ، لا ! لا يزال الوقت مبكرا للتفكير في المقبرة ··

عادت لاريسا الى البيت متأخرة ، وقبل أن تجتاز الباب سمعت أنغاما ·· انه ابنها اليوشا يعزف على البيانو ·· غير أن هذا اللحن كان غريبا عنها ·· وما ان رآها حتى انقض عليها معانقا ومعاتبا ·

لماذا تأخرت الى هذا الحد يا أماه ، فأنا انتظر قدومك منذ حين ·

ـ ماذا كنت تعزف ؟

وقبل أن يجيبها ، دخلت وراء الحاجز لتبدل ثوبها ، وتصلح شعرها ··

ـ كنت أحاول أن اؤلف ، فأخذت أعزف وأعزف ·· انني أشعر بأنني أستطيع أن أصل الى شيء لقد وضعت بعض الخطوط الرئيسية ، وأخذ اليوشا ورقة مغطاة بالنوطة ، وأخذ يتفحصها ، مقطبا حاجبيه ، مفكرا ·· ما زال هذا اللحن يتردد في أذني ، منذ أن سمعنا معا بحيرة البجع ·

ـ ولكن ما كنت تعزفه ، كان حزينا جدا ··

فسألها بسذاجة ، وعيناه تلمعان :

ـ صحيح ؟! هل أحسست بذلك ؟ ·· يجب ألا يكون ذلك حزينا فحسب ·· لقد أردت أن أعبر عن الاحساسات التي شعرنا بها في ستالينغراد ·· بالطبع كنت حديث السن ·· وفاتني فهم أشياء كثيرة··ولكنني لا أزال أذكر الاشياء الرئيسية ·· هدير المعركة ·· استشهاد الجنود··وطيبتهم أيضا ·· وكثيرا ما أتساءل لماذا كان هؤلاء الجنود يحسنون معاملتي هذا الحد ؟ · لا بد أنهم كانوا يفكرون بأولادهم ، وربما كانوا يفكرون بأولئك الذين لم يولدوا بعد ·· لقد كانوا يحاربون من أجل المستقبل ·· هذا كله أريد أن أعبر عنه ··

فقالت لاريسا متوسلة ، وهي تقلب الورقة التي ملأها اليوشا بالنقط السوداء

ـ أعزف لي ما ألفت ·· انني حكم ضعيف في الموسيقا ولكن قلبي يساعدني على الفهم ·· وجلست على الاريكة دون أن تبدي حراكا ، جاعلة رجليها التعبتين تحتها ، وكانت عيناها وحدهما يفضحان ما بها من الاضطراب ·

وبينما كان اليوشا يتجه مرتبكا نحو البيانو ·· كانت لاريسا ، وهي تتبع بنظرها ظهر المراهق الضيق ذا العظام البارزة ·· وقفاه ·· ، تفكر ·· كم كبر في هذا الصيف ·· وكم نحل ! ··

لقد خاب أملها لدى سماعها النغمات الاولى ·· كل شيء كان مبهما ، متنافرا ، مختلطا ، ·· وكان الموسيقي الصغير الذي تنقصه الجرأة ، يفتش ويفكر ·· انه يخشى أن يكرر ألحانا معروفة ·· ورويدا رويدا ··كما ينحدر الينبوع من الصخر ·· انبثق الموضوع الموسيقي ، ·· وانساب واضحا ·· ودوى بقوة ·· طارحا كل ما يشوه التعبير الحقيقي ·· ونسيت لاريسا أن تنقد أول انتاج هام لولدها ·· كانت تنصت بكليتها : رأت في موسيقاه صورة لقلقها ، وخوفها ، وايمانا بالنصر ، وحبها لشعبها ، ·· ولمعت دمعة في مآقيها ·· وتوقف اليوشا فجأة عن العزف ·· ، والتفت بعنف ليعترف·· وعلى ثغره ابتسامة حيرى ·· ولكنها سعيدة ·

ـ لم أذهب أبعد من هذا ·· ألم أزعجك بموسيقاي؟!

ـ لا يا اليوشا ! لقد أصغيت ·· وأرادت أن تضيف بسرور ·· ولكنها توقفت وقالت أصغيت بانتباه ياحبيبي ··

فصاح الولد بشغف :

ـ ليتني أستطيع أن أؤلف ما يحب الناس الاصغاء اليه بانتباه ··

ـ انني متأكدة بأنك ستنجح ! هل تود أن نذهب الى ستالينغراد ؟ غدا سأجري عملية جراحية لاحدالمرضى برودنك اذ أن حالته خطرة ، ومزاجه صعب ·· وعلي أن أراقب حالته الى أن تلتئم جراحه وتسحب منها الخيوط ·· ثم نسافر ما دمت في اجازة ··

فاضطرب اليوشا ، وشحب لونه وصاح :

ـ آه يا أمي ! أود أن أذهب الى ستالينغراد ! ··

وفضح صوت المراهق الذي لم يشتد بعد ، ما اعتراه من فرح وسعادة

وتساءلت لاريسا : ترى ، لماذا ، لم يبد رغبة قط في السفر الى ستالينغراد ؟! ولكنه ما لبث أن قال وكأنه قرأ ما يجول في خاطرها :

ـ انني أعلم بأنه يعز علينا ٠٠ يعز عليك أن تري هذه الاماكن ٠٠ وراحت أصابعه الرشيقة تداعب مضارب البيانو ٠٠ وشعرت لاريسا بألم شديد يحز في نفسها ٠٠ دون أن تدري اذا كان مبعثه كلمات ابنها أم النغمات التي تنتزعها أصابعه الخفيفة من البيانو ٠٠

وأخذت يدي ابنها وقالت له وهي تنظر اليهما فاحصة من خلال دموعها : يالها من يدين كبيرتين يا اليوشا ، الراحة كبيرة والاصابع نامية ٠٠ كنت دائما أظن بأنه يجب أن يكون للموسيقيين أيد رقيقة وناعمة ٠ فهز اليوشا كتفه مستنكرا وقال :

ـ العكس تماما يا والدتي ! فاليد الصغيرة الضيقة ، ليست الا أداة رديئة لعازف البيانو ٠٠ فالعزف هو عمل يدوي محض ٠٠ واليد القوية هي التي ترغم الآلة على اداء ما بوسعها أداؤها ٠ اسمعي :

وانتصب في جلسته وضرب عدة ضربات قوية،انبعثت من روحه ، فجاءت تعبيرا رائعا لمقدمة (سكريابين)

فتأملت لاريسا ابنها مدهوشة ٠٠ لقد أصبح اليوشا الصغير ، موسيقارا حقيقيا ، وسيكون يوما ما مؤلفا ما من ذلك شك ٠ أي أب لا يفخر بولد مثله

وقضت لاريسا ليلة سيئة ٠٠ حلمت خلالها أحلاما مزعجة ٠٠ كانت تحس كأن أنفاسا باردة مثلجة تلازمها من رأسها حتى أخمص قدميها فتكاد تختنق ٠٠

عندما استيقظ اليوشا ، كانت لاريسا جالسة قرب طاولتها ، وقد تهيأت للذهاب الى عملها،كانت مسترسلة في تفكيرها ، وهي تقص ورقة لتحولها الى نموذج ، عندما سألها ابنها وهو يقفز من سريره بخفة عسكرية ٠٠

ـ هل تذهبين اليوم الى معهد الجراحة ؟!

ـ لا أنا اليوم في المستشفى ٠٠ فتابع حديثه وهو يصلح غطاء السرير ٠٠

ـ هل تقابلين هناك زوجة (ايفان ايفانوفيتش)

عندها ارتجف المقص في يد لاريسا ، فانحرف المقطع ٠ وترددت قليلا ، ثم أجابته ٠٠

ـ بالتأكيد ٠٠ لماذا تسألني هذا السؤال ؟!

ـ هكذا ! لا لشيء ! ٠٠ انني أراها أنا أيضا عند نتاشا كوروبوفا ٠٠ ولكنني لا استلطفها ٠

ـ هكذا تقول ولماذا ؟!

ـ لا أدري ٠٠ فهي على عكس ابنها ميشو ٠٠ انه جيد وهو حقا فريد ٠

ـ متى رأيته وأين ؟!

ولاحظت الأم احمرار اليوشا الذي أجابها ٠

ـ في الساحة ، في بيته عند آل ارجانوف ٠

ـ وماذا ذهبت تفعل هناك ؟

وقبل أن يجيب دخل اليوشا غرفة الحمام ليغتسل، وهكذا استطاع أن يتحاشى كل سؤال ٠٠ انه لا يستطيع أن يقول لها بأن سبب زيارته الى شارع ليننغراد ،كانت رغبة ملحة لرؤية ارجانوف ٠٠ ولكن هذا لم يكن بالامر السهل ، فالبارحة مثلا ، لم يوفق الى رؤيته ٠٠

ـ وعندما بدآ اليوشا من جديد سألته أمه ٠

ـ هل تعرف أي يوم نحن ؟!

ـ اعتقد انني أعرف ٠٠ اليوم عمري خمس عشرة سنة ٠٠ او تظنين بأنني نسيت

ـ لا لم أعتقد ذلك ، وفتحت لاريسا الخزانة ، وأخرجت منها رزمتين مسطحتين ٠٠ انهما لك ياحبيبي عيد سعيد ٠٠

كانت احدى الرزمتين تحوي قميصا من الحرير الابيض ، قميصا ، رجاليا حقيقيا ، ذا أكمام بأزرار ٠٠ وفي الرزمة الثانية كتاب ذو طبعة فاخرة حياةموزارت

فصاح اليوشا وهو يقبل والدته بحنان ٠

ـ شكرا لك يا أمي الصغيرة ٠٠ لا يوجد أم أحسن منك في العالم !

أمي ! وتذكرت لاريسا ٠٠ وابتسمت ابتسامة فيها حزن وفخر معا ٠٠

وما أن وصلت الى المستشفى حتى غيرت ثيابها واتجهت نحو الشقة التي فيها المرضى المطلوب فحصهم ومعاينتهم قبل اجراء العمليات لهم ٠

كانت بولينا اوسيبوفنا التي تساعدها أثناءالعمليات ، تنتظرها مع مرضاها ٠ وفاريا كذلك ٠٠ كانت هنا مع بيريزكين ، وهو مريض سيء الطالع ، لا تتحسن حالته أبدا ٠٠

وما لبثت بولينا اوسيبوفنا أن قالت لها وهي تدفع باعتزاز مريضها الذي أمسكت به من كتفيه ٠٠

ـ انظري يا لاريسا بيتروفنا ! انظري الى المحجر الذي هيأته للعين الصناعية ٠٠ لاحظي تصفيف الاجفان في الزاوية ٠٠ عمل جيد اليس كذلك ٠٠ لا يوجد الا هنا ٠٠ وازاحت بولينا الضماد بأصابعها الخفيفة ونظرت الى لاريسا نظرات ملؤها التوسل ، وكذلك المريض ، كان ينظر الى لاريسا بعينه الوحيدة نظرة كئيبة متسائلة: لا شك أنها تعرف كيف تدفع عنه هذه العاهة ٠

كانت فاريا وحدها لا تحب أن تقدر علم لاريسا وتجاربها الكثيرة ٠٠ وحصل ذلك منذ اليوم الذي فاجأت فيه زوجها يتحدث في منامه موجها كلامه الى لاريسا ٠٠ وفي تلك الليلة ، لم تستيقظ فحسب بل رفع عن عينيها الحجاب الذي كان يعميها طيلة تلك السنين ٠٠ مستحيل

أن يكون نقدي لكتابه سببا في عزوفه عن حبي ٠٠ هو أيضا عنيف وصريح ٠ أتراه لم يحبني قط ؟! ولكن يبدو أنه لم يصارح لاريسا في شيء « وراحت تمعن النظر في وجه منافستها الشاحب الذي تبدو عليه علامات الكآبة والغم » يظهر انها تجهل كل شيء ٠٠ ولربما كانت تحب رجلا آخر من يدري ؟! أو هل يمكن أن تكون خالية القلب طيلة هذه السنين الاخيرة ؟! وما لبثت (بولينا اوشيبوفنا) أن نبهتها من أحلامها قائلة :

– كنت تودين أن تري مريضك للاريسا بيتروفنا فتماسكت فاريا وقالت :

– نعم ! نعم ! انه بيرزكين الذي يشكو من تحجر في جسم العين ٠٠ لقد أجرينا له العملية معا ٠

فقطبت لاريسا حاجبيها ، محاولة التذكر ٠٠ فالمرضى الذين يمرون تحت يدها كثيرون ٠ وكم من مرة كان عليها أن تساعد زملاء مجربين ، وأطباء حديثي السن ، مثل فاريا ٠٠ لم يكن بود لاريسا جرح فاريا عندما تظاهرت بعدم الاهتمام بعملها ٠٠ ولكن هذه الاخيرة ظنت ذلك مقصودا ، وعدم تذكرها تظاهرا ٠٠ ومع ذلك استطاعت أن تتغلب على أعصابها ، وأخذت تشرح للاريسا حالة مريضها بالرغم من اضطرابها الشديد ٠

– انه يلح في أن أقتلع عينه المريضة ٠٠ وأنا لا أريد أن أشوهه ٠ انظري الى بولينا اوسيبوفنا كم تتحمل من مشقة لعمل عين صناعية ٠٠ صحيح اننا هنا أمام عين عمياء ٠٠ ولكنها عين حية على كل حال ٠٠ لنرى ذلك معا ! هل تريدين ؟!

وعندما انتهى الفحص الطبي قالت لاريسا للمريض:

– انه رأيي أيضا ٠٠ يجب الاحتفاظ بالعين ٠٠ اننا لا نستطيع أن نمنحه البصر ، ولا نريد ايهامه ذلك ولكن يجب تهدئة الآلام ٠٠ علينا أن نقوم بعملية أخرى ٠٠٠ استئصال قطعة صغيرة من القرنية ٠٠ ان هذا يعطي أحيانا نتائج جيدة ٠

فقالت فاريا مستفسرة :

– في هذه الحالة علينا أن نتهيأ للعملية أليس كذلك؟!

فأجابتها لاريسا بلهجة لا تدع مجالا للتردد

– أجل أنا التي سأجري العملية ٠٠ وأنت تساعدينني ٠٠ ما رأيك يا برزكين

– لا مانع من محاولة أخرى ٠

وما ان انتهت المعاينة حتى خرجت فاريا ومعها برزكين، وفي الممر شاهدا المريض برودنك شديد الاضطراب ، ويصيح مهددا ممرضته شابة ٠

– اذهبي عني ! وحذارى أن تفوهي بكلمة للاريسا بيتروفنا !

– ولكنك أنت الذي تتألم من جراء ذلك ! من واجبي ألا أسكت لانك في حالة حمى ولا يمكن اجراء عملية لمريض محموم !

– انك أنت وحدك الحمى ! آه منك ياحمى الملاريا ! وانتزع برودنك ميزان الحرارة من يد الممرضة ، وحطمه ورماه في الارض ، وانقض على الفتاة صائحا ٠٠ رايح ٠٠

وبقفزة واحدة ، وقفت فاريا حائلا بين المريض والممرضة قائلة :

– لقد اسرفت في غيك ٠٠ اننا نداويك ، ونحن مسؤولون عن صحتك ٠٠ فاذا ما أزعجتنا في عملنا ، تكون أول من ينال جزاءه

– اسكتي والا أقلع عينيك ٠٠

عندها ظهرت لاريسا على عتبة مكتبها مستفسرة عن سبب هذه الضوضاء؟ فأجابتها فاريا وامارات الاضطراب من جراء شتائم المريض لا تزال بادية على وجهها : انه محموم ٠٠ لقد كانت معاملتنا اياه حتى الآن جيدة ٠٠ ولم يحاول أي منا أن يهينه ٠ فقاطعها برودنك صارخا:

– صه ! هذا لا يعنيك

عندها قالت له لاريسا دون أن ترفع صوتها :

– اذا لم تقدم اعتذارك للطبيبة ٠٠ تطرد فورا ٠٠

– أطرد ؟! وتذكر برودنك فجأة ذلك الصباح الذي استيقظ فيه ، وقد وقع الضماد عن عينيه أثناء الليل ٠ وتذكر زوجته التي رفعت رأسها حينئذ عن الوسادة ، وانحنت عليه لتمعن النظر في وجهه ، انه لا يرغب مطلقا في اثارة الشغب والصخب ، ولكن ٠٠ لماذا هو محكوم عليه بهذا العذاب الابدي !؟ ٠٠

– لاريسا بيتروفنا !

– لا لزوم للجدل ! قالتها لاريسا ، وقد ارتسمت على وجهها عبارات الحزم ٠ وقتم لون عينيها ٠٠ مما دعا برودنك أن يفقد كل مقاومة ، ويذعن للامر الواقع ويقول معتذرا

– لن أعيد الكرة يا لاريسا بيتروفنا ٠٠ انها المرة الاخيرة ، أعدك بذلك !

كانت لاريسا واقفة ، لا تبدي حراكا ، كما لو أنها لم تسمع كلامه ٠٠ فكم من مرة تحاملت على نفسها كيلا تنقض على هذا الوقح ٠٠ فاحمر وجه برودنك من الخجل والغيظ ، والتفت الى فاريا قائلا :

– اعذريني لجفائي أيتها الطبيبة ٠٠

فقالت له لاريسا :

– انه ليس مجرد جفاء ٠٠ بل هي اهانة وطنية ٠٠ فردد برودنك مطيعا

– اعذريني للاهانة الوطنية التي وجهتها اليك ٠

– الوضع يختلف الآن ٠٠ اننا لا نستطيع أن نجري لك أية عملية ما دمت محموما ٠٠ اننا نجري لك العملية

لا عندما يروق لك ، بل عندما نرى نحن الوقت ملائما ٠

وعندما بلغ بيرزكين قسم أمراض العين ، عادت فاريا الى المنضدة التي يوجد عليها اضبارة المريض ، وأخذت تسجل فيها رأي الطبيب المداوي٠٠ كانت يداها ترتجفان ٠٠ ووجنتاها محمرتين الى درجة يصعب معها اخفاء اضطرابها ٠ نسيت لاريسا بعد حادثة برودنك تحفظها مع فاريا ، ذلك التحفظ الذي أصبحت تعاملها به ، في هذه الايام الاخيرة ، منذ أن لاحظت حذرها وتخوفها منها ٠ وقالت لها في لهجة بعيدة عن الرسميات والتكلف ومليئة لطفا :

ـ لا تجزعي لغضب أحد المرضى ، الى هذا الحد ، يافاريتي الصغيرة !

فأجابتها بصوت منخفض وشفتاها ترتجفان :

ـ انه ليس بسبب هذه الكلمات الخبيثة الحمقاء ٠٠ ولكن ! ٠٠

فأجابتها لاريسا وهي تنحني على فاريا بكليتها

ـ ماذا بك اذن ؟

فاحمرت هذه خجلا من تلك النظرات الفاحصة الموجهه اليها ، والتي لا تقبل الخداع ، والمراوغة ٠٠

ـ انني أريد أن اكلمك على انفراد يا لاريسا بيتروفنا ، غير أن هذا المكان ليس ملائما ٠٠ والوقت غير موافق فصمتت لاريسا٠٠لقد كانت بحاجة الى أن تجمع حواسها وأفكارها ٠٠ لم تعد تشبه في هذه اللحظة ، تلك المرأة المتسلطة التي رأتها فاريا أمامها منذ هنيهة

لقد عاد الى وجهها الحزين القلق ، طابع سحر بالغ ، وانوثة طاغية ، ثم قالت بعد أن ألقت نظرة الى ساعتها٠

ـ انتظرك ريثما تنتهين من عملك ، ونذهب معا الى بيتي ٠٠

ـ طيب ! قالتها فاريا بصوت يكاد ألا يسمع ٠٠

وعملت فاريا طيلة يومها كعادتها وأظهرت اهتماما بالغا بالمرضى ، غير أنه في استراحة الظهر ، عندما كان جميع الاطباء يتناولون الشاي مع الشطائر ، انحنت بولينا أوسيبوفنا على فاريا وسألتها بلطف :

ـ ماذا بك ياصغيرتي ؟!

ـ لا أدري ! لا ! لا شيء !

ـ لا أستطيع أن أصدق بأنك لا تشكين من شيء ! هل انت حزينة الى هذا الحد بسبب ذلك البائس برودنك؟ فأجابت لتتخلص من كل احراج

ـ نعم !

كان بامكان هذه المرأة أن تنصحها كأم ، غير أنها أرادت أن تبت وحدها في أمر لا يهم سواها ٠٠ وأخذت تفكر ، وهي تنظر صامتة الى زملائها الذين هم أشبه بالطلاب بمرحهم وسعادتهم ٠

علينا أن نحل مشاكلنا بأنفسنا ، اذ لا يستطيع انسان أن يحلها لنا ، علي أن أكون شجاعة وأتكلم لا أستطيع الصمت أكثر مما فعلت ولا أستطيع مراقبتهما ٠

وغادرت فاريا ولاريسا المستشفى معا ٠٠ واتجهتا الى محطة الاوتوبوس٠ بقدر ما كانتا قريبتين من بعضهما، بقدر ما كانتا متباغضتين ٠٠ لقد أصبحت تعاستهما المشتركة أكثر وضوحا ٠٠ وأخذت الهواجس تنتابهما ، فتدعوهما الى التساؤل : هل يكون هذا الحديث الذي لا بد منه مجديا ؟ ٠٠

كانت هي المرة الاولى التي تذهب فيها فاريا الى بيت لاريسا ٠ كانتا جالستين ، الواحدة بجانب الاخرى ، قرب النافذة التي كانت تطل منها فاريا ، من خلال الزجاج ٠٠ فتنظر حينا الى اسفلت الشارع حيث يخال اليها بأن الهواء الساخن يدفع المارة ، وحينا آخر الى الابنية التي يظهر من بينها سماء مغبرة من الضباب ، ومغطاة ببعض الغيوم البيضاء ٠٠ المتفرقة ٠٠ هذه الغيوم المنذرة ، وشدة الحرارة داخل السيارة ، والهواء الذي كان يحرك الاثواب الزاهية الالوان،ويقتلع مناديل النساء الحريرية ، منديا وجوه المسافرين الرطبة ٠٠ كل هذه العلامات ، المنذرة بدنو العاصفة ، كانت تزيد من اضطراب فاريا ، ودون أن تلتفت الى جارتها ، كانت ترى يديها الجميلتين على ركبتيها ٠٠ وتتصور جبينها المقطب تحت شعرها الغزير الذي يأبى أن يختفي تحت سدارة الطبيبة ، رغم الجهد الذي تبذله يوميا لضبطه

أجل أن لاريسا نفسها صعبة القيادة ٠٠ ولا تخشى مصاعب الحياة ٠٠ ولكن تبا للظروف التي شاءت أن تضعها في طريقها ، وهي فاريا المسكينة ٠٠

وملأ صدرها شعور بالحقد كاد يخنقها ٠٠ فشعرت بدوار وطنين في أذنيها ٠٠ انها تتمنى من كل قلبها ان تقطع الحبل الذي شاءت الاقدار أن تربط به مصيرها هي ، ومصير من تحبهم : زوجها وابنها بمصير هذه المرأة ٠

وما ان كانت في بيت لاريسا ، حتى أخذت فاريا تنقل طرفها الفاحص في أثاث البيت البسيط ٠٠ هي ذي الاريكة التي ينام عليها اليوشا ، ووراء الستار المطوي سرير لاريسا الضيق الناصع البياض ٠ وهناك مكتب صغير الحجم أكل الدهر عليه وشرب ٠ وعلى الطاولة المغطاة بمشمع شفاف يقي الغطاء ، يوجد بعض الكتب ومزهرية من الكريستال فيها بضع زهرات من الاقحوان ٠٠ وتزين البيانو باقة جميلة من الاضاليا في وعاء من القيشاني المنمق برسوم عربية جميلة بارزة ٠٠

وكأن وجود لاريسا في بيتها أعاد اليها ثقتها بنفسها ٠٠ فراحت تهيء عملها بهدوء ، تحضر المائدة وتأخذ

الآنية من الدولاب الصغير الجاثم قرب الخزانة، وتذهب الى المطبخ مفسحة لفاريا المجال لتعتاد على الجو وتتهيأ من أجل الحديث المتعب الذي ستثيرانه بعد قليل ..

واستسلمت فاريا لافكارها .. ياترى هل جاء زوجي الى هنا ولكن هل أستطيع أنا أن أحضر أحدا الى بيتي وابني ؟! ايفان ايفانوفيتش .. خليل تلك ؟! واغبر لون فاريا ، وفجأة اعتراها خجل ، تلونت لشدته اذناها بلون الارجوان .. وتذكرت معاملة ارجانوف لها، عندما كانت لا تزال فتاة غرة مأخوذة بالجراح الكبير . لقد أحبته منذ اللقاء الاول .. وكان يعمل حينئذفي مستشفى المناجم الذهبية فأصبح مثلها الاعلى في الحياة تقتدي به وتسير على نهجه . وفي الجبهة ، ألم يكن تصرفه مثاليا ؟! انه فعلا لا يدع لها مجالا للشك .. وليس من حقها أن ترتاب به انه لا يذهب أبدا الى امرأة أخرى لمجرد انه مال اليها ..

وأجابها صوت داخلي .. ولكنه يحب لاريسا ! انه يكلمها بالحلم ، انه يناديها ! اني أشعر في هذه الايام الاخيرة بعدم اهتمامه بي ، وعذوفه عني .. ان هذا يؤلمني .. ولكن هما انهما سعيدان معا ! .. وتصببت عرقا عندما راودتها هذه الفكرة .. جلست الى المائدة .. وقد شعرت بكل جوارحها وجود لاريسا .. وقع أقدامها .. تنفسها .. كل حركة منها ، كانت تضني فاريا ، وتحملها ما لا تطيق ولكن لو كان يحب لاريسا حقا لما تجرأ أن يخفي ذلك عنها وهي فاريا المرأةالمتسلطة القوية .. ان صمته لا يمكن أن يكون ناتجا عن سوء نية تجاهلها أو تجاه ولده .. ولكن من يدري ؟ لربما وقع من جديد في غرام لاريسا ..

وهنا شعرت فاريا بأن قلبها يكوى بجمرة وقالت في نفسها : وان كان بها شغوفا فانه يحاول بدون شك أن يتغلب على شعوره اذن لم لا أتسلح بالشجاعة واتذرع بالصبر .. ولم أدفع أحدهما بين ذراعي الآخر؟ الا يعني هذا ابعاد الرجل الذي أحبه عني ، عوضا من أن أكافح من أجل المحافظة على بيتي ..

لادعه ينتخب ما يشاء ويقرر ما يريد ..

أخيرا .. تقدمت لاريسا من الطاولة ووضعت عليها ابريق الشاي ، وطبقا من البسكويت والحلوى وجلست أمام الزائرة قائلة :

– انني أصغي اليك .. ما الذي كنت تودين قوله لـي ؟!

فمرت فاريا بجميع الوان قوس القدح .. وكللت جبينها قطرات من العرق البارد الشبيهة بالندى ،وقالت

– كنت أريد .. كنت أريد أن أطلب منك نصيحة تتعلق بمسألة شخصية بحتة ، غير أنني بعد أن فكرت في الامر ، رأيت الافضل أن ..

– عندها انتصبت لاريسا .. ان اضطراب فارياكان أبلغ من أي شرح ، وفهمت حالا الموضوع الذي أرادت أن تتطرق اليه وصاحت قائلة ..

– ماذا رأيت الافضل أن .. ؟!

ولو كان الامر يتعلق بثرثارة تأكل صدرها الغيرة لتمكنت لاريسا أن توقفها عند حدها .. ولكنها لا تستطيع أن ترفض حديثا مع فاريا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، لقد فكرت طيلة نهارها في هذا الحديث الى درجة جعلتها تعتبر اتخاذ فاريا هذا القرار المفاجيءاهانة موجهة اليها في الصميم .. ولكنها لم تلح .. انها غير مستعدة للتدخل في حياة عائلة ارجانوف اذن لماذا تطلب من فاريا اعترافات ؟ ليكن ما تريد قوله رجاء أو لوما أو وعيدا .. هذا لا يعنيها .. اذ أنه سيكون سببا فياذاعة أمر العلاقات العائلية ، وهذا ما تخشاه لاريسا كثيرا . ولذا أجابتها بصوت عما في نفسها من انفعال وان كانت بذلت ما في وسعها كي تظهره طبيعيا .

– كما يحلو لك ! ولكنفيهذه الحالة ، سنتعشى معا، هل تريدين ؟ سيكون الحساء جاهزا بعد لحظات وعندي سمك مشوي ..

– أشكرك ! لا أريد شيئا ! انني مزعوجة وسأعود أدراجي الى البيت ! قالت هذا وخرجت مسرعة منالغرفة

كانت هيئتها تدل على أنها حقا مريضة .. فتلطفت لاريسا وأمسكت بيديها عند الباب الخارجي قائلة :

– انتظري دقيقة واحدة . سأنادي سيارة أجرة ، فهنا على مقربة منا يوجد ..

– شكرا انني أفضل العودة سيرا على الاقدام ..

ووقفت لاريسا قرب الباب عدة دقائق كانت تسمع خلالها وقع الاقدام الرشيقة على السلم تبتعد شيئا فشيئا .. ثم أغلق الباب الخارجي .. ولم تمض ثوان حتى أخذ الرعد يقصف : لقد احتفظت الزوبعة بحقوقها حتى هنا في المدينة ، بين هذه الكتل الحجرية . .

اقتربت لاريسا من النافذة وأمسكت بكلتا يديها الستائر التي نفخها الهواء .. حجبت الامطار كل شيء .. وهناك تحت هذا الوابل السخي .. كانت امرأة صغيرة القد ، أعشى عينيها هذا الوابل أو تلك الدموع التي تملأ مآقيها .. تركض ، وتزلق ، وتتعثر حاملة في قلبها ، كربها الشديد ، وغمها الدفين ..

وتساءلت لاريسا وهي تنظر الى الفضاء الذي يخططه المطر المتساقط : لم كل هذا ؟.. لم نتألم كل هذه الآلام .. نحن الذين نتمتع بالذكاء ، ونعتبر مخلوقات حرة ..

وتصورت أرجانوف ، تصورت صوته ، ونظراته ٠٠ واعتراها حزن عميق ، أصبحت معه تغبط فاريا مع كل ما بها من أحزان٠٠ ستبتل حتى عظامها ولكنها٠٠ ولكنها ستراه بعد قليل ٠٠ ستمتد يده المدهشة تساعدها في خلع ثوبها المبتل ، وتدثر كتفيها المثلجتين ٠٠ وكل ما تبقى ، يبدو تافها وصغيرا بالنسبة لهذا ٠٠ أنا لا أتمتع بمثل هذا ٠٠ الجميع قصف الجميع قتل في الحرب ٠٠ اثنا عشر عاما وحدة قاتلة الا من اليوشا ٠٠ غير أنه بعد عدة سنوات سيتركني هو الآخر ٠٠ ولن يبقى لي الا أمل واحد ٠٠ أن أهرم بأقصى ما أستطيع من السرعة ٠٠ وأنسى أنني امرأة ٠٠ قنوط يحدو بي الى العويل ٠٠ غير أن لاريسا لم تصرخ ٠٠ ولكنها لم تر الجرأة الكافية لتناول طعام العشاء فقد كانت عاجزة عن أخذ لقمة واحدة ٠٠ وراحت تسير جيئة وذهابا ، حتى أنهكها التعب ٠٠ ليت لقاء أرجانوف حصل هنا عوضا عنه في المحطة الاوتوبوس ٠٠ انها بحاجة اليه ٠٠ واليه وحده ، كما هو ، في تفهمه للحياة ، وادراكه عمله ، وتصوره حظه العاثر ٠٠

وفكرت لاريسا طويلا ، وتذكرت جو الجبهة ، والعطف الذي كان أرجانوف يغمرها به واليوشا ، وقالت : آه ! عندما أتصور بأن كل شيء ، كان يمكن أن يتبدل ٠ غير أنها في الوقت نفسه ٠٠ كانت تعرف جيدا بأن لا شيء يجري خلافا لما هو عليه الآن ٠٠ ولو أنها رأت أرجانوف الساعة ، هنا في هذا المكان لما حصل أي تبدل أو تغيير ٠٠

وأرغمت نفسها على الجلوس أمام مكتبها ، وفتحت كتاب العمليات ٠٠ ولكنها ، كان يخيل اليها أنها ترى في كل صفحة جرحى مشوهين يصيحون :

أنا أيضا أريد نصيبي من السعادة ، لماذا حرمت من سعادة الحب ، أن أحب وأن أحب ٠

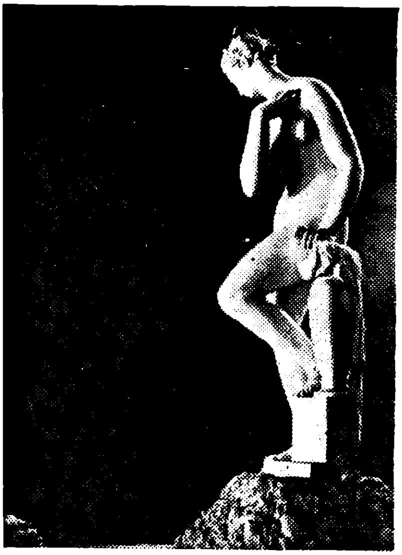
وهبت لاريسا واقفة وهي تغمغم ٠

ـ يا للهول ، كل هذا بسبب تلك الحرب المشؤومة ٠

وعندها فكرت بالملايين من النساء اللواتي بقين وحدهن مثلها ، ومثلها يعملن قلقات بسبب وحدتهن من هن ؟ انهن لسن نساء ، هذا النصف الضعيف من البشر ، المضطر أن يشقى ويتألم ٠٠ لو كان الرجال مكانهن ٠٠ لثاروا منذ أمد طويل ، وقطعوا ارب االذين يهيئون حربا جديدة ، معرضين من جديد ملايين البشر للموت ، أو لحياة بائسة ، محطمة ، بين أربعة جدران ٠٠ اذ أن الحرب لا تنتهي مع آخر طلقة نارية ٠٠ الا بالنسبة للموتى فقط ٠٠

التفاحة الذهبية للأجمل

بقلم: سعد صائب



افروديت أو « فينوس » ربة الجمال

« .. هذه المحاورة صورة حية من صور « لوسيان » الساخرة لجأ اليها ليجعل من اللواتي اسماهن الاغريق القدامى بالآلهة وما كن الا نسوة لهن ما للنسوة من تنازع ، فتراهن يحببن ويكرهن ويحقدن ويثأرن ، وتحتال الواحدة منهن ما وسعتها الحيلة ، وتناضل ما اسعفها النضال من أجل أن يقال عنها انها أجمل النساء جمالا ، وابرعهن حسنا ، وابهاهن رونقا . وحسب « لوسيان » انه استطاع بسخريته اللاذعة تصوير هاته الآلهة ، فكأني به كان يسخرمن الاغريق أنفسهم،ومن شاعرهم«هوميروس» الذي نظم الالياذة،وأوقف أناشيدها على أخبار حرب طروادة التي ما نشبت لولا تشوف « افروديت » الى ظفرها بالتفاحة الذهبية ليقال أنها أجمل الآلهة ، ولولا اغراؤها « باريس » بانها ان حكم لها بالجائزة ، وفضلها على أندادها فستتيح له الزواج من « هيلانة » وهي أجمل زوجة في العالمين كما تروي الاسطورة ، فاذعن لهذا الاغراء ، والقى اليها بالتفاحة ، بالرغم من الصيحات المتتالية التي كانت تأتي اليه من البحر محذرة منذرة ، فلم يأبه بها ، فكتبت عليه وعلى قومه التعاسة ولم يلق بعدها بلده »

سعد

أشخاص الحوار :

زيوس : أو جوبيتر أصغر أولاد ساتورن ورئيس الأسرة الثانية من الآلهة وأشهر آلهة اليونان .

هرمس : ابن زيوس ورسوله ووصيه الامين الى الآلهة والناس ، وهو كذلك اله الخطابة والبيان والتجارة واللصوص .

حيرا : زوج زيوس الشرعية وأخته وبنت ساتورن وهي آلهة الزواج وقد اشتهرت بالغيرة والحقد .

اتينا : أو منيرفا آلهة الحكمة والعقل والفنون وبنت زيوس .

افروديت : أو فينوس آلهة الجمال والحب والتناسل ، تروي بعض الاساطيرانهاخرجت من زبد البحر .

باريس : أو الاسكندر الابن الثاني لبريام من زوجته هيكوبا ملكة طروادة،وقد أغرى هيلانة زوج منيلاس وسبب بخطفها حروب طروادة .

زيوس : أي هرمس : خذ هذه التفاحة وامض بها صوب فريجيا **Phrygie** واما لقيت ابن بريام **Priam** راعي البقر ، ذلك الفتى الذي أطلق قطيعه في أرض غارغاروس **Gargaros** من ليدا **Lida** فانه اليه هذا القول : « أي باريس ، ان زيوس نظرا لما يعهده فيك من جمال ، ولما يأنسه فيك من دراية في الحب ، يأمرك أن تكون الحكم بين هذه الآلهة ، فعليك ان تصدر حكمك عمن هي الاجمل منهن،واية ربة انتصرت ، وبزتهن بجمالها فظفرت بالتفاحة غدت هذه الجائزة دليلا على كسبها المعركة » . أما أنتن أيتها الآلهة فتلك هي

الهنيهة التي تتاح لكن لتمثلن بين يدي حكمكن . أما أنا فلست بالحكم الذي يصلح لكن ، لانني أحبكن جميعا بلاتفريق أو تمييز ، ولو أن في مقدوري الحكم اذن لجعلتكن تفزن جميعكن بالجائزة ، غير ان الامر علي جد عسير ، لاني ان فضلت احداكن على غيرها فمنحتها جائزة الجمال، فلست انجو من بغض اندادها ، ولست — كما أعلم — بالحكم الذي ترتضينه ، ولكن الفتى الفريجي الذي ابعث بكن اليه من ارومة ملكية وهو قريب لصاحبنا غانيميد Ganimide وفي الوقت ذاته هو ريفي ساذج ، ولا اخاله سيقضي بينكن الا بما يراه فيكن .

افروديت : أما بالنسبة لي يازيوس وان كنت أوثر لو انتقيت لنا مومس Momos حكما ، فاني ماضية الى صاحبك بكل ما لدي من جرأة لاغدو هدفا لعينيه ، اذ ماذا في مقدوره ان يلقى في ؟ وحري به ان يترضى سواي من الآلهة .

حيرا : ان قولك يا افروديت مردود اليك ، فلن يتولانا البتة خوف ان تولى صاحبك آريس Arès التحكيم ، وسنقبل بأي حكم مهما كان شأنه بل اننا لنقبل بباريس هذا .

زيوس : أأنت أيضا من هذا الرأي ياابنتي ؟ فما قولك ؟ علام تشيحين بوجهك وقد علته حمرة ؟ هل من طبعكن أنتن العذارى ان تحمر في مثل هذه الحال خدودكن ، لقد اومأت بقبولك الرأي .. فأمضين اذن ، وارجو الا تغتاظ المغلوبات البتة من الحكم، والا ينلن الفتى بمكروه ، فليس عسيرا ان تكن جميعكن متساويات في الجمال .

هرمس : لنمض قدما صوب فريجيا

، وسأقودكن اليها ، فاتبعنني ولا تتقاعسن، وكن مطمئنات ، اني أعرف باريس ، وهو فتى طيب وهب الحب حياته ، وغدا جديرا بالحكم في مثل قضيتكن ، وسوف يكون عدلا في حكمه .

افروديت : ان ما تحدثت به من اننا سنحظى بحكم عدل يعود نفعه وخيره علي ، ولكن اجبني هل هذا الفتى أعزب أم أن له امرأة تسكن واياه؟

هرمس : لم يكن أعزب تماما يا افروديت .

افروديت : ما الذي تعنيه ؟

هرمس : اخال ان ثمة امرأة من ايدا تسكن واياه ، وقد رضي بها وان كانت ريفية جبلية بشكل مفزع ، وليست كما يبدو اثيرة لديه . ولكن ما الذي حملك على طرح هذا السؤال ؟

افروديت : لقد طرحته على عواهنه .

اتينا : انك ياصاحبي قد خالفت ما كلفت القيام به، حين خصصتها بحديثك من دوننا .

هرمس : لم آت يا اتينا امرا ادا ، ولا تحدثت بما يسؤكن . ولقد سألتني ببساطة عما اذا كان باريس متزوجا .

اتينا : ما الذي يعنيه اذن هذا العبث ؟

هرمس : لست أدري ، ولكنها قالت بأن السؤال قد خامر عقلها وانه وليد الصدفة .

اتينا : حسن .. هل هو أعزب ؟

هرمس : لا يبدو ذلك .

اتينا : اتراه اذن يهوى القتال ويرنو الى المجد ام انه ليس الا راعيا للبقر بسيطا ؟

هرمس : ليس في مقدوري ان اصفه لك على حقيقته ، ولكني اخاله فتى يافعا قد اعد للظفر في القتال عدته ، وينوي ان يتقدم الصفوف في المعارك .

افروديت : أرأيت ، انني لم أشك كما شكت ، ولن اعاتبك على ايثارك اياها بالحديث ، اذ ليس

من طبع افروديت ان تشكو من شيء تافه •

هرمس : لقد صنعت معي ما صنعت انت ، ولا اخالك تسخطين او يدور في خلدك انك لن تنالي بغيتك لاني اجبتها بصراحة كما اجبتك • غير ان حديثنا كان وديا ، وقد بعدنا الآن عن النجوم وكدنا نشارف فريجي • ولقد بانت لي ليدا Lida بوضوح ، وبدت لعيني غارغاروس كلها • كما بدا – ان لم يخني النظر – حكمكن باريس نفسه •

حيرا : اين هو ؟ اني لم اره البتة •

هرمس : من هنا ياحيرا ، انظري الى يسارك ، ولا تنظري الى القمة ، بل تطلعي الى السفح في المكان الذي ترين فيه القطيع •

حيرا : ولكني لا أرى القطيع البتة •

هرمس : ماذا تقولين ؟ الم ترى شيئا وانت تتبعين اصبعي ، الم تري العجول التي تسير خلل الصخور ، والرجل الذي يهبط مهرولا من أعلى الصخرة وقد امسك بيمناه عصا يهش بها على القطيع ليحول دون بعثرته بعيدا ؟

حيرا : ان كان هو الذي تعنيه فقد رأيته الآن •

هرمس : بلى ، انه هو • وما دمنا قد اوشكنا على الدنو منه فحري بنا ان نضع أقدامنا على الارض ان انتن وثقتن بي ، وان نمشي قبل ان نخيفه حين يرانا نهبط اليه فجأة من السماء •

حيرا : ان هذا القول حق ، ولنصنع بما تشير به علينا ، اما وقد هبطنا الآن فعليك يا افروديت ان تتقدمينا وتهدينا الى الدرب ، لانني على يقين بأنك تخبرين هذه الربوع ، ولانك – كما قيل – كنت بين الفينة والفينة تهبطين بحثا عن انشيز •

افروديت : ان هذرك ياحيرا لن يثيرني البتة •

هرمس : انا الذي سأتقدمكن ، لا سيما وانني كنت مقيما في « ايدا » حين اولع زيوس بالفتى الفريجي ، ولكم كنت ارتاد هذه الربوع بأمر منه ، كيما ارقب الغلام ، حتى اذا ما استحال زيوس الى نسر طرت بجانبه فامسكنا معا بالفتى الجميل ، وان لم تخني الذاكرة ، فقد كنا نصعد به من على هذه الصخرة ، حين كان يعزف لقطيعه على الناي ، واذكر ان زيوس هبط خلفه فقبله بحنان من اظفاره وقبض بمنقاره على العظم الذي كان يحمله فوق رأسه ، ثم رفعه فتولته رعدة من الخوف وهو يحدق الى وجهه • أما أنا فقد التقطت الناي بعد ان أفلت منه فملأه الخوف •• هو ذا الحكم دان منكن فتحلقن حوله •• سلام عليك ياراعي البقر •

باريس : سلام على زيوس ، وسلام عليك ايها الفتى • ترى من تكون حتى جئت الينا ؟ ومن ترى هاته النسوة اللواتي تصحبهن ؟ انهن بارعات الحسن ، وكأني بهن لم يخلقن ليرتدن الجبال •

هرمس : ليسن البتة نسوة ، بل هن آلهة ، فهذه حيرا وتلك اتينا وهذه افروديت ، أما أنا فهرمس الذي اوفده زيوس اليك • فعلام اضطرابك ؟ ولم هذا الشحوب الذي ران على محياك ؟ لا تخف ، فلن ينالك البتة شر ترتاع منه ، لقد شاء جوبيتر Jupiter ان تكون حكما في جمالهن ، لانك – كما قال – جميل وحاذق في الحب مما حمله على الاعتماد عليك والوثوق بك في فض الخلاف الناشب بينهن ، واني لاسلمك جائزة السباق لتتلو ما سطر على هذه التفاحة •

باريس : هاتها لاقرأ ما كتب عليها : « لتكن التفاحة من نصيب الاجمل » ترى أفي مقدوري يا مولاي هرمس ان اصدر الحكم وافصل فيه

حيال مشهد كهذا المشهد يزخر بالروعة ، ويفيض بالجمال ، وما انا الا كائن فان وراع ريفي ؟ ان مثل هذا التحكيم لا ينهد له في الاعم الاغلب الا مدني لبق مرهف الحس ، أما أنا فليس بوسعي ان قدر لي ان أحكم - على ضوء فني - الا بين أجمل عنزتين ، أو أجمل عجلين . اما هاته الآلهة فكلهن متساويات في الجمال ، ولا أدري كيف يمكنني أن أقلب في احداهن ناظري واغمضها عن الثانية ، اذ من العسير علي أن أغض الطرف عنهن جميعا . أما الآن وبعد ان بدأن الهبوط فلم يزلن يشغفن الناظرين اليهن حبا ، ويبهرنهم بجمالهن ، ولو مضين الى أية ناحية فسيبدون جميلات أيضا . ولا اكتمك ان جمالهن قد نفذ في أعماقي واستحوذ علي ، واني لحانق أشد الحنق لعجزي عن النظر اليهن بجسمي كله كما عجز من قبلي ارغوس Argus ، واخال ان حكمي لن يكون عدلا ان لم أهبهن كلهن التفاحة .

وثمة أمر من العسير علي تدبره ، وان اوليه اهتمامي ، وهو اني لا بد وان أعثر بينهن على أخت لزيوس وزوجه ، ومن بقي منهن فبناته . أترى يكون نهج الحكم الذي سأنتهجه وفق هذه الشروط سهلا ميسورا ؟

هرمس : اني أجهل ما تقول . ولكن يبدو ان ليس من السهل علينا ان نعصي لزيوس امرا .

باريس : ايا كان الامر ، فعليك ياهرمس ان تقنعهن بأن على الاثنتين اللتين لن تفوزا بالجائزة الا يطالباني بها ، وان تتأكدا بأن عيني وحدهما كانتا مخدوعتين .

هرمس : تعرين ايتها الآلهة .. ابدأ في فحصهن بتمهيدك للتحكيم .

باريس : سأحاول ما دمت لا استطيع صنع شيء بغير هذا النهج . ولكن ثمة امر احب في البدء ان اجلوه لك هل ستكتفي بفحصهن كما يبدون ، أم ترغب بتعريتهن من ثيابهن كي يكون الفحص صحيحا ؟

هرمس : هذا من شأنك أنت لانك الحكم ، ويمكنك ان تأمر بما يرضيك .

باريس : ما يرضيني ؟ رؤيتهن عرايا .

هرمس : تعرين ايتها الآلهة .. ابدا في فحصهن . أما أنا فسأغض طرفي .

حيرا : احسنت يا باريس وستلقاني اول من يتعرى منهن، كيما تعلم ان ليس لي ذراعان بيضاوان ولا عينان دعجاوان أفخر بهما فحسب بل ان لي جسما متنا سقا رائع الجمال .

باريس : تعري أنت يا افروديت .

اتينا : لا تدعها يا باريس تتعرى قبل ان تلقي عنها مئزرها ، فهو طلسم في وسعها ان تفتنك به ، وكان حريا بها أن تأتي دونه ، بل ودون ان تكثر من خضابها الذي تبدو فيه كالبغي وكان لزاما عليها ان تبدي جمالها عاريا .

باريس : ان لهن ملء الحق فيما ابدينه عن المئزر ، فالقه جانبا يا افروديت .

افروديت : لماذا لا تنزعين عنك انت يا اتينا خوذتك لنرى رأسك عاريا ، وعلام تحركين ذؤابتك لترهبي بها باريس ؟! او تخشين من انه لا يجرأ على الدنو من عينيك الخضراوين ان لم يرهما في تهويلهما .

اتينا : دونك ، فقد رفعت خوذتي .

افروديت : دونك ، فقد القيت بمئزري .

حيرا : ها نحن عرايا .

باريس : أي زيوس يارب كل عجيبة ! أي مشهد

أرى ؟ بل أي جمال ! وأي غلمة ! جميلة هي العذراء ! لكم تنبعث منها روعــة ملكية جليلة ، لكأني بهــا لا تصلح الا لزيوس ! وأي سحر عينين وبسمة حلوة مغرية ترفان من الثانية ! آه ! لــكأني الساعــة في غايــة السعادة • ولكنني ــ ان سمحتن ــ اود لو اتملى كــل واحــدة منكن بمفردها ، كيما أمعن فيها ناظري ، لا سيما وانني الساعــة أشد حيرة وترددا ، ولا ادري كيف اقلب ناظري اللذيــن يهيمان بــكل ناحيــة من اجسادكــن •

افروديت : اصنع ما يحلو لك •

باريس : اذهبا اذن انتمــا الاثنتين الى وراء ، وابقي أنت ياحيرا •

حــيرا : لن ابرح مكاني ، واما تمليتني جيدافستغدو لحظة التأمل لديك شيئا آخر ، وسترى يا باريس ، اني سأبعث في نفسك الغبطة ، بما أهبك من هدايا ان انت زكيتني،وسأجعلك ان انت اصطفيتني بالجائزة سيدآسياكلها •

باريس : لن تؤثرني الهدايا البتة حين اصدر حكمي، اذهبي الى وراء،سأفعل ما يبدو لي انه عدل، اقتربي يا اتينا •

اتينــا : هــا انــا ذي • ولئن قضيت لي يا باريس ، وحكمت بأني اجملهن ، فلن تهزم في ساح الوغى ، بل ستخرج منها مظفرا ابدا ،لاني سأجعل منك قائدا وفاتحا عظيما •

باريس : لست في حاجة يا اتينا الى ما نوهت به مــن حرب ونضال ، لان السلام ــ كما ترين ــ يرين على فريجيا **Fhrygie** ويعم ارجاء ايدا **Ida** ، وليس لملك ابي اعداء نقاتلهم ، أما الآن فحري بــك الا تقلقي او تخالني ظالمك فلن تغريني الهدايا حينأحكم ولك ان ترتدي الآن ثيابك ، وان تضعي على رأسك خوذتك ، فقد استوفيت تأملك،وحل دور افروديت لتمثل أمامي •

افروديت : ها انا ذي دانية منك ، فتملاني جيدا ، فلذة فلذة ، ولا تهمل شيئا ، بل تريث حيال كل فلذة من جسدي،وحبذا ايها الفتىالجميل، لو ارهفت سمعك الى ما سأفضي به اليك : لقــد رأيتك منذ أمد فتى جميلا ممشوقا ، بل أجمل جمالا مما أعرف ان كانت فريجيا قد غذت ما يشبهك ، ولقيتك سعيدا هائمــا ممتلئاسحرا وفتونا،غير اني الومك لحرصك على عــدم مبارحتك هاتــه الذرى ، وتلك الصخور وتفضيلك اياها على الحياةفيالمدينة ، فكأنك بهذا تدع جمالك يذوي في بيداء قفر•ترى ما الذي كنت ترجوه من جبالك؟ وماذا تراها ستجني أبقارك مــن جمالك ؟ وكنت اراك اذ ذاك عــلى أهبة العثور عــلى زوجة ليست من بلدك كما هن عليه بنات ايدا ، بل بغادة جميلة من غيد اليونان ، أو من غيد ارغوس اوكورنتااولاقونيا **Laconie** شبيهة بالغادة الفاتنة هيلانــة ، ذات الملامح التي لا تقل عن ملامحي،ولعل هذا الضرب من الملامح ما خلق الا ليعشق ، وانيلوائقة بأنها لو رأتك لعافت كلشيءفيسبيلاللحاق بك،ولاسلمتك مقاليدها فعاشت بينذراعيك• فهل أتاك حديثها ؟

باريس : لم يبلغني شــيء مما رويت يــا افروديت ، فحبذا لو انبأتني بما تعلمينه عنها •

افروديت : هي ابنة ليدا **Lèda** ، الفاتنة التي حلق من أجلها زيوس في السماء واستحال الى بجعة •

باريس : ما شكلها ؟

افروديت : بيضاء ، وهو امر طبيعي لانهــا ولــدت من بجعة ، لعوب لانها غذيت في بيضة ، ولشد

ما كانت ترى وهي تتدرب على القتال ، وتمارس ، الرياضة ، وقد مضوا يبحثون عنها بعد ان ثارت من أجلها الحرب ، اذ خطفها تيزيه Thésèe قبل ان تبلغ سن الرشد وحين نضجت انوثتها تقدم جميع امراء آشين يتنازعون خطبتها،ففضلت مينيلاس Ménélas عليهم جميعا لانه من سلالة بيلوبيدس Pélopides وان رغبت انت بها فسأعمل على زواجك منها •

باريس : حسبك هذا ؟ اتزوجيني امرأة لها بعل ؟

افروديت : انت فتى ساذج كساكني الريف • دع لي الامر لاني أعرف كيف أسلبها •

باريس : كيف ؟ انشدك الا اطلعتني انا ايضا على ما ستصنعينه

افروديت : ستهجر موطنك بحجة الذهاب لرؤية اليونان ، حتى اذا ما بلغت لاسيديمونيا Lacèdémone رأتك هيلانة ، عندها سأسعى بدوري على اغرائها بحبك والانصياع لك •

باريس : هذا هو الامر الذي يبدو لي انه لا يصدق، امرأة تفر من بعلها وترضى ان تبحر مع همجي لا تعرفه •

افروديت : ثق بما أقول ، فلدي غلامان جميلان هما ديزير Dèsir وايروس Éros وسأهبهما ليكونا رائديك في رحلتك ، وسيتغلغل ايروس فيها فيضطرها الى حبك، ويستحوذ عليك ديزير فيساويك بنفسه ، اثيرا محبوبا • اما أنا فسأصحبهما ولن ابرحكما وسألتمس من المحسنين مرافقتنا ومؤازرتنا على اقناعها •

باريس : ماذا سيأتي من كل ذلك فاني أجهله يا افروديت • ولكني أحب الساعة هيلانة ، ولست أعرف كيف تتاح لي رؤيتها أأبحر توا الى اليونان،أم أقيم في سبارطة Sparte كيما أعود وقد ملكت هذه المرأة • واني لحانق لان كل ما رويته لي لن يتحقق عاجلا البتة •

افروديت : لا تحنق ياباريس قبل ان تؤدي بحكمك الثمن لمن تهيء لك زوجة ، وخير لك ان اصحبك وانا متوجه باكليل النصر ، فأعلن للملأ عرسك وانتصاري ، وفي وسعك ان تشتري كل شيء بهذه التفاحة •• تشتري الحب والجمال والبكارة •

باريس : أخشى انك تنسيني بعد الحكم •

افروديت : اتبتغي ان ادعم وعودي بيمين ؟

باريس : كلا ، بل اعيدي وعدك •

افروديت : أعدك بأن أجعل من هيلانة لك زوجة ،وان أدعها تصحبك فتمضيان معاالى ايليون Ilion ولن ابرح مكاني ، استعدادا لشد أزرك في كل شيء •

باريس : وستصحبين ايروس وديزير والمحسنين أيضا ؟

افروديت : حذار ان تخشى أحدا ، سأرفقهم بالامنية والمديح ، فأعطني التفاحة وفق هذه الشروط •

باريس : هاكها وفق هذه الشروط[1] •

دمشق سعد صائب

(١) من كتابنا « لوسيان الكاتب الساخر » المعد للطبع

فنون والوان

واقع الفن التشكيلي في الاقليم السوري

بقلم : عفيف بهنسي

ليست جذور الفن التشكيلي في اقليمنا ضعيفة قصيرة، ففي المتحف الوطني شواهد فنية ، منها ما يرجع الى خمس وثلاثين قرنا ، هي في غاية الروعة والجمال والدقة والبراعة. ولقد تأثر الفن في سورية بهزات سياسية وغزوات حربية لم تترك من آثاره الا القليل ، ولهذا فان طابعه الخاص ضاع بين طيات التقاليد الفنية المختلفة . وعندما تحررت البلاد من التبعية العثمانية واستيقظ الوعي القومي من جديد، كان من مشتملاته يقظة الوعي الفكري والفني ، فكانت بداية الحركة الفنية ، التي نستطيع ان نعتبر انطلاقها رمزا لتفتح الحياة الحرة في البلاد ، وبداية للنهضة الشاملة في جميع المجالات .

والواقع ان أي حركة فنية لا بد لها من اسس اولية ترتكز عليها في ظهورها وتطورها ، وباعتقادي ان هذه الاسس هي ، الاصالة والثقافة والاهتمام .

والحديث عن الاصالة ، يدفعنا الى تذكر خصائص الانسان العربي ، المبنية على الاعتزاز بالفضائل الابداعية، والبطولات الفردية ، وعلى السعي وراء الاهداف البعيدة الخارقة . على انه من الممكن التعرف على الاصالة الفنية من خلال التقاليد والملامح الفنية الاساسية والقدرة الابداعية . والحق ان جميع مقومات الاصالة هذه ، متوفرة في الفن العربي ، فالارابسك وهو التوريق المعتمد على ايقاعات جميلة لاشكال مجردة أحيانا ، أو مشخصة بعض الشيء أحيانا أخرى ، قد استمر تقليدا فنيا لقرون عديدة ، أخذ عنه كبار الفنانين في العالم أمثال ماتيس و مارك و بول كلي .

ومن الممكن اعتبار الخط الرشيق والالوان الزاهية الشفافة والايقاع المستمر والتجريدية البهية واللون الذهبي الذي اعتبره اشبنجلر رمزا للحضارة العربية ، أقول من الممكن اعتبار هذه العناصر هي الملامح الاساسية الثابتة لفننا العربي .

أما القدرة الابداعية ، فانني أترك لشعراء العرب القدامى اثبات عبقريتهم الخالقة التي جعلت من الشعر العربي تراثا خالدا يستوعب صيغ الفن الزماني والتشكيلي بوقت واحد .

وتبقى الثقافة، مظهر ديمومة الاصالة الفنية واستمرارها، وهي اذا ارتكزت على التراث الفني الذي خلفه تاريخ الامة ، فانها تعتمد ايضا على النباهة والجد . فالعمل الفني يحتاج الى الموهبة والدأب معا ، وليس من السهل الاعتماد على أحد هذين الجناحين اذا اردنا انتاجا فنيا صحيحا ، على ان وجود الفنان الصحيح ليس كافيا لقيام الحركة الفنية ، اذ لا بد لهذا الفن من جو ومن سوق يروج فيها انتاجه . والجمهور هو المجال الذي يعيش فيه الفنان وينمو . ولهذا فان الثقافة الفنية ضرورية للجمهور كما هي ضرورية للفنان ، اذ أن أي فارق بين ثقافة الفنان وجمهوره يؤدي الى تصدع الحركة الفنية وجذورها. ويبقى اساسيا لنمو الحركة الفنية ان يشملها الاهتمام ، اهتمام الدولة والافراد معا ، ويأتي هذا الاهتمام عن طريق فهم دور الفن في الحركة الحضارية ، ثم عن طريق العمل على اعطاء الفن حقه من التقدير والتشجيع .

هذه هي أسس الحركة الفنية اجمالا ، ولنحاول الآن اسقاطها على مراحل نهضتنا الفنية الاخيرة .

ذكرت في البداية أن الظروف التي مرت بها البلاد خلال القرون الخمسة الاخيرة ، لم تكن مواتية لظهور النشاط الفني . ولكن ذلك لم يمنع من وجود فنانين لم يكتب لهم المجد والخلود ، ولكنهم كانوا في حياتهم واوساطهم من المرموقين الذين اختصوا وبرعوا بتزيين السقوف ورسم المناظر الجدارية واللوحات الفنية،وكان فنهم سهلا جميلا يعبر عن خيال فطري وعن اصالة فنية في ترتيب الالوان . وما زالت بعض البيوتات في دمشق وحماة وحلب شاهدة في صورها الجدارية على الروح الفنية البكر التي كانت تحاول الظهور ، لولا التخلف والجهل والطغيان العثماني في ذلك الوقت .

وعندما استعادت سوريا صفتها العربية ، بعد الحرب العالمية الاولى جمعت شتات امكانياتها ، وانطلقت الاجيال الشابة التي تعرفت على مسؤولياتها الجديدة ، لطلب المعرفة ، فمضى عدد وفير منهم الى الغرب ، وكان منهم الفنانون الذين اصبحوا رواد فن جديد يقوم على اسس صحيحة مدروسة ، ثم ظهرت طلائع جديدة تتلمذت على أيدي هؤلاء مشكلة صفا جديدا من الفنانين ، استطاع ان يستفيد من تمهيدات الجيل الاول وان يساعد على دعم الحركة ومتابعة تطويرها . فبينا كانت الطريقة المتبعة عند الاوائل مدرسية تقريبا ، واقعية وموضوعية ، وكانت موضوعاتهم شخصية أو تاريخية ، كما يدل على ذلك معرض **١٩٢٩** . أصبحت طريقة الجيل الثاني أكثر تفننا وأصبحت موضوعاتهم منوعة تشمل المناظر الطبيعية والطبيعة الصامتةوالوجوهوالتأليف معبرين عنها بأساليب مختلفة ، هي واقعية ولا شك ، ـ ولكنها بعيدة عن الاصول المدرسية ـ قريبةمن الاصول الانطباعية أحيانا ، وخاصة عندما تعتمد على اللونوالنور، ردت ان تهتم بالدقائق والتفاصيل . ولقد كان معرض **١٩٣٦** ثم معرض **١٩٤٣** وأخيرا معرض **١٩٤٥** من المعارض الهامة التي لفتت الانتباه الى النشاط الفني والى تطور الحركة الفنية السريع .

ولم يلبث هذا الجيل حتى اندمج بجيل آخر،اختمرت في اعماقه الروح الفنية ، وتعرف من خلال دراسته الثانوية ومن خلال المعارض العامةوالمعارض الفردية، ثم من خلال تجاربه الخاصة على امكانياته الفنية وعلى قدرته على الانتاج والابداع ، ولم تلبث هذه المعرفة ان ارفدت بالدراسة المنتظمة أو بمتابعة الانتاج والتجربة ، حتى أصبح لدينا عدد كبير من الفنانيين نستطيع ان نعتبرهم خلاصة مرحلة شاقة من مراحل النهضة الفنية في بلادنا .

وما يمتاز به فنانو المرحلة الثالثة ، وفيهم تختلط ثلاثة اجيال من الفنانين ،هو تشعب الاتجاهات ، وتعدد المناهل والواقع انالفن التشكيليفيسورية، طوى تطورات سريعة ليست هي نفس تطورات الفن في الغرب ، الا أنها تتصل الى حدما بأصول المراحل الكبرى التي مر بها ، فاذا كانت الانطباعية والوحشية والتكعيبية والتعبيرية والسريالية والدادائية ثم التجريدية،هي الاتجاهات المختلفة التي حددت خط الحركة الفنية في الغرب ، فاننا نستطيع ان نعتبر الاتجاهات الفنية هنا قد لخصت اهم المدارس الغربية وتجاوزت بعضها الذي لم يستقر مع الزمن ، ثم تفرعت الى اتجاهين اساسين احدهما اتجاه موضوعي تعبيري ، والآخراتجاه ذاتي تصويري وتفرع من هذاالاتجاهالاخير طرائق مختلفة ، منها التكعيبية والتزينية والتجريدية ، ويلاحظ ان الاتجاهان ،الموضوعي والذاتي استندا الى اصول فنية مختلفة، فالموضوعيون التعبيريون ، اعتمدواعلى الشكل في ذاته مع شيء من التصرف احيانا في تحديد الخطوط وفي تحريفها ، واعتمدوا على الالوان المشرقة الزاهيةالتي تعطيتأثيراجماليامرتفعا أماالذاتيونالتصويريون فانهم اعتمدوا على الفن العربي احيانا وعلى النتائجالابداعية في الغرب احيانا اخرى وذلك حسب اتجاهاتهم المختلفة .

ونستطيع ان نقول ان محاولات الفنانين هنا ، قد التقت بل تجاوزت محاولات الفنانين الغربيين في تعريب الفن الحديث ان جاز التعبير . والواقع ان نتائج هذه الخطوه وان لم تبد نهائية بعد ، فلقد تم بها وضع الخطوط الاولى لفن تشكيلي أصيل ، يعبر عن التقاليد الفنية والحياة العربية الحديثة .

ومما لا شك فيه أن ارتفاع مستوى الوعي الفني ، والتذوق الجمالي عند الجمهور ، كان أكبر دافع لتطور الحركة الفنية في الاقليم السوري ، ولكن لا بد من الاعتراف من أن التذوق الجماهيري ، لا يسير في خط مواز لخط الابداع الفني • ومن الواضح أن تحقيق ذلك يحتاج بعض الوقت ، اذ أن المعارض الفنية التي تقيمها وزارة الثقافة سواء منها المعارض المحلية أم المعارض الدولية ، تبقى الوسيلة المثلى لنشر المعرفة الفنية بين الجمهور ، وتنميـــة التذوق الفني لديهم • وقد بدا في بعض الاوساط الاجتماعية تقليد اقتناء اللوحات الفنية ، ولكن هذا ما زال ضمن نطاق ضيق جدا لم يفد في تعميم الاهتمام بالنتاج الفني ، ومن الواضح أن ارتفاع مستوى التذوق لا يساعد في ارتفاع مستوى الانتاج وحسب ، وانما في زيادة كميته أيضا ، اذ أن وجود سوق رائجة هي من أهم عوامل ازدهـار الحركة الفنيـــة ، وتبقى المكافآت التي تقدمهـــا الجهات المسؤولة الى الفنانين ، والمعارض الفنية التي ترعاها الدولة ومراكز ومدارس الفنون ، هي من أقوى وسائل التشجيع والتثقيف حاليا •

يتبين لنا أن واقع الفن في اقليمنـا يدعو الى التفاؤل الشديد ، اذ أن الفعالية الفنية لم تبتدىء في الواقع الا منذ عشر سنوات ، أي منذ أن تحققت الحرية الكاملة بعد جلاء المستعمر ، وخلال هذه السنوات القليلة قفزت الحركة الفنية قفزات واسعة جدا ، مما يؤكد تأثير الاستعمار السيء على الفن • ثم جاء عهد الوحدة بعد عهد الاستقلال ، فكان لا بد من الاستفادة من التراث الفني العريق في الاقليم المصري ، الى جانب الثقافة الفنية العالية التي يتمتع بها فنانون تخرجوا منذ خمسين سنة من كليات فنية وطنية ، وباعتقادي أن التفرقة السياسية بين الدول العربية ، تضيع كثيرا من أهمية الفن العربي الذي توزع النوابغ فيه بين جميع الاقطار ، فضاعت هوياتهم الاصيلة ، لكي يقترن فنهم بطابع اقليمي ضيق ، يجعل تأثيره على الفن العالمي ضئيلا أو معدوما •

لهذا فان المرحلة الحاسمة في تاريخ الحركة الفنية في سورية ، هي مرحلة تكوين فن عربي تتبلور فيه شخصية فناننا بعيدا عن الاقليمية أو القطرية أو العنصرية •

تتمة ما نشر على الصفحة ١٤

ـ اذن هلمي • (ودخلنا)

« نحن ندرك ان الشعور بالصمت يجدد في خواطرنا الذكرى فيدفعنا الشوق لاستعادة الاحداث من جديد علنا نعثر على ما تبقى فيها من بقايا حلوة، أو بقايا مريرة» •

على أن ذكريات حبنا كانت أول ما جال بخاطري في ذلك الجو الهادىء فاستدرت بوجهي نحو زينب ورحت أتغزل بها :

ـ وجه كالبدر، أنارته السموات بنور ساطع فلم يبق من حوله ظلال •

فتبسمت بخجل ولم تنبس ببنت شفة ، غير أني اقتربت منها واحتضنتها بذراعي وتابعت :

ـ وفم كخاتم سليمان تلونت من منابره الشقائق •

فلم تقل شيئا لكنني شعرت بكيانها يتراخى فضغطها بيدي والقيتها نحو الارض بلطف واسترخيت معها ثم رحت أمد يدي لاتحسس مفاتن جسدها الضاوي •

غير أنني أفقت من عالمي هذا على دفع مصراع الباب الموصد بشدة ونهضت مرتبكا فاقد الوعي على صرخة قوية :

ـ انهض ياسافل ••

وخيل الي انني أدور في دوامة عنيفة ، فتموهت لي الدنيا بقناع من الضباب الكثيف الداكن • وتكشفت أمام ناظري رهبة المكان فلم ار الا شبح والدي كالعملاق يقترب مني ويصفعني بقوة فانهارت أعصابي وارتميت على الارض ، ثم أخذ يرفسني بقدميه بلا رحمة • ولم يك بالقرب مني سوى زينب ، ذلك لانها تسمرت في مكانها ، فلم تقو حراكا • واشتد علي الدرب من كل صوب ، وتجمع حولي كل أهلي •• أمي •• أشقائي •• واخذوا يبكون بمرارة • ولم يجرؤ أحد منهم على حجزه لانهم يعرفون قسوته • ولم يكف هذا الاب القاسي فانتفخت أوداجه وتناثر من بين شدقيه زبد كزبد الجمل الهائج ، وأقسم على أن يؤدبني •• يوصمني بالنار •• وهذه طريقته عندما يشتد به الغضب •• وقد بلغ مراده :

قضيب من حديد•• تأجج بلهب كلهب جهنم ، وتطاير الشرر منه بقوة •• ورأيته يقترب مني فكاد يغمى علي •• وصرخت •• صرخت بشدة •• وأخذ الكل يبكي •• الكل منهم •• أمي •• أشقائي •• جيراننا •• الا هو •• هذا الاب اللئيم الذي لا يرحم •• كم هو قاس •• وقعت مغمى علي وكل شيء حولي يدور في دوامة• وزينب ، تلك المسكينة ارتكزت في ركن من أركان الغرفة وجمدت فيه •

* * *

وانقضت الحادثة ، وخيل الي أن الزمن أزاح عليها ستارا أبديا ، فالتأمت جروحي •• وعدت أتشوق لرؤية زينب ، فتاة أحلامي ومؤنسة قلبي ، لكنني علمت في ذات صباح ان والدها ذهب بالعائلة الى غير رجعة • فتساءلت : الى أين ؟! • قال بعضهم : أرض الله واسعة الفلاء •• ان عليه عارا يريد أن يمسحه بمر الزمن (فابتأست وذرفت الدموع) •

ولم تتغير معاملة ابي لي •• فقد بات يحتقرني أكثر من ذي قبل ، وأقسم في ذات يوم على أنه سيحرمني من كل شيء يستطيع حرماني اياه •

« وتملكني في الظلام احساس غريب فتخيلت زينب أمامي تميس كما تميس الورود مع نسمات السحر ،

والفيتها تخطو نحوي وتبتسم فتأججت في قلبي شعلة الحب ، واشتعلت في اواصري النيران ، فأحسست بشحنة من اللذة تسري في أعماقي•وطرق مسمعي أثناء شرودي نباح الكلب الوليد فلفني الظلام بحلكته، وعصفت الرياح بقوة فتنبهت الى نعيق « البوم » •• وسمعت صوت والدي وهو يصرخ في الطريق الموحش بغضب : امش ياولد •• »

فأخذت أركض لاهثا ••

الكويت ـ محمود الخطيب

كونراد

ترجمة بقلم : محمد سعيد الكيلاني

من بين الظواهر الغريبة التي تسترعي النظر في الادب الانكليزي ؛ لا نرى ظاهرة أكثر سحرا ، وقبولا ، في التقاليد الوطنية ، من ظاهرة كونراد .

ففي سن الـ ٢١ كانت له معرفة بسيطة بكلمات قليلة من اللغة الانكليزية . ولكن قبل مماته – أي بعد نصف قرن تقريبا – كان قد اكتسب مهارة في استعمال تلك اللغة ، مكنته من أن يكسب لمؤلفاته مكانا خالدا في تاريخ الرواية الانكليزية . وقليل ما هم، أولئك الكتاب الذين عاشوا عيشة المغامرة في سنوات شبابهم ، كما عاش هذا البحار البولندي المنعزل ؛ الذي عرف البحر في مختلف حالاته ؛ والجو الغامض في الموانىء وجزر الهند الغربية طوال عشرين عاما .

واذا نحن اردنا فهم فنه ؛ وجب علينا فهم حياته .

لان تجاربه كانت المادة الاولية التي خلق منها بعناية ودية ؛ رواياته التي لا تنسى .

كـان اسمه الحقيقي تيودور جوزيف كونراد كور زينوسكي . ولد عام ١٨٥٧ في جنوب بولندا . وكانت السنوات الاولى من حياته معكرة بآلام والديه ، اللذين انغمسا في الخصام البولندي الروسي .

وبعد عودة والده من المنفى ١٨٦٢ أقامت عائلتـه في كراكو . اذ دخل كونراد الصغير مدرسة خاصة . ثم بعد موت والده ١٨٦٩ دخل (المدرسة العليا) المحلية.

ويبدو ان عقله قد استقر بعد اللمحة الاولى – التي ألقاها على البحر خلال زيارته للبندقية ١٨٧٣ .

كان البحر بالنسبة للشاب التعس ، رمزا لعالم سحري حر يمكن ان يلجأ اليه .

وفي ١٧ تشرين الاول سنة ١٨٧٤ وصل مرسيلياء ولم يكن مجهزا بأكثر من آمال الشباب السامية ، والرغبة في دخول الاسطول الفرنسي التجاري ، مع كتاب توصية وسرعان ما اصبح صديقا للملاحين والبحارة في ميناء مقاطعة (فيوبورت) .وتردد على مقاهي كانبير.وفي نهاية ١٨٧٥ كان قام برحلته الأولى الى جزر الهند الغربية كبحار متمرن على سفينة تجارية فرنسية .

وفي السنوات التالية قام برحلة ثانية الى جزر الهند الغربية . وبعد أمد ، انهمك في النشاط الثوري لحزب كارل في اسبانيا ، كما انهمك في امور غراميـة . وكلا الامرين انتهى بفاجعة ، بيد أن التجربة لم تنس .

وبعد اربعين سنة كانت التجربة وحيا لرواية (سهم الذهب) . وفي ١٨٧٨ أبحر كونراد على مركب بخاري انكليزي في طريق القسطنطينة وبحر ازوف الى (لويستوفت) وفي زمن قصير لم تتعد مخاطراته التجارة الساحليـة بين لويستوفت ونيوكاسل .

ولكن خلال تلك الايام ، بدأ يزيد في معرفته البسيطة للغة الانكليزية.وبدأ يعرف القيمة الحقيقية لبحارة شرق انكلترا الاشداء . وفي خريف السنة نفسها ، ابحر الى (سدني) على سفينة تنقل الصوف .

لقد بذرت البذور ، وتهيأ للحصاد ، باكتسابه معرفة تامة بالملاحة واللغة الانكليزية . وكان نجاحه سريعا في كلا الاتجاهين .

حتى أنه في عام ١٨٨١ صار المساعد الثاني للقبطان على السفينة الشراعية (فلسطين) . وتجاربه في هذه السفينة سجلت في احدى رواياته المتوسطة الطول الجميلة (يوث) وهي قصة السفينة (جوديا) بصفتها مماثلة تماما للسفينة فلسطين .

وفي عام١٨٨٦ بعد أن جرب كثيرا من السفن ، نجح في احراز شهادة الرئاسة في الملاحة •

وفي السنة التالية ، صار الضابط لسفينة (الغابات العالية) التي تبحر الى جاوا • وقد امضى خلال بقائـه في الشرق الاقصى جزءا كبيرا من تلك السنة ، مساعدا ثانيا في مركب ساحلي،يتاجر بين جزر الهند الشرقية وبين خليج الملايو • وفي ذلك المكان ، اكتسب معرفته الوثيقة بالجزر والموانىء والغابات ، في ذلك الجزء الغامض من الشرق •

وهنا لقى ايضا أصول شخصياتـه الروائية • الماير • لينكارد ويلمز • وملامح اخرى من رواياته •وفي ١٨٨٨ أعطى الرئاسة الاولى كقبطان ل (اوتاغو) • وقد استقال ١٨٨٩ وعادالى انكلترا حيث بدأ أولى رواياته(حماقة المابر) وبعد ذلك بوقت قصير سافر الى الكونغو •

وقد سجل هذه التجربة في روايته (قلب الظلام) • وكان لهذه الزيارة تأثير خطير على صحته• ولكنه في١٨٩١ عاد الى البحر ثانية كضابط اول للمركب الشهير (تورنز) حيث قابل (غولزورتي) مسافرا من استراليا الى جنوب افريقيا •

لقد كان هذا الاتصال، الاتصال الاخير لكونراد بالبحر لانه في عام ١٨٩٣ عاد الى بيته ، وأقام ، ليتم رواية(حماقة المابر)•

ولحسن حظه ،وقعت مخطوطته الاولى في يد قارىء ذكي حساس هو (ادوارد كارنت) الذي ادرك بعد قراءة الرواية ـ الامكانيات الادبية العظيمـة للقبطان البحري البولندي الشاب •

وقبل (فيشر انوين) نشر روايته الاولى• وشجعه على ان يبدأ العمل في اخرى (منبوذ الجزيرة) التي ظهرت ١٨٩٥ •

واما بقية حياته ، فهي عبارة عن كتابة للروايات ، عن سنوات الفقر النسبي ، وعن سمعته الاخذة بالتزايد، وعن صداقتـه لبعض رجال الادب البارزين في عصره أمثال : (غولزورتي) (بنيت) (كراهام ويل) •

واخيرا وبعد سنوات طويلة من الالام الجسمية فاضت روحه ١٩٢٤ •

ليس من السهل ان ننتقل من هذه الشخصية ، الغريبة بثباتها البطولي ، شخصية البولندي الارستقراطي ، الذي جعل من نفسه بحارا ظريفا ، وبعد ذلك فنانا اظرف ، كما لم يكتب احد من قبل ، عن جمال ورعب البحر ، وعن النضال المحتمل الذي يملكه الانسان ، ليس مع قوى الطبيعة فحسب ، بل مع نفسه أيضا •

أن رواياتـه واتتاجـه الشعري ، مرآة ، تكشف في أعماقها ذلك الخليط من الخيال والواقعيـة الذي يكون الكيان الحقيقي لكونراد •

وفي مقاله عن الكتب ،تبدأ مجموعته المسماة(ملاحظات عن الحياة والادب) بقوله : (ان تتبـع السعادة بوسائل قانونية او غيرقانونية ،خلال الاستقرار او الثورة،بالمعالجة الماهرة للتقاليد ، او بالتعلق الرزين بأذيال آخر نظرية علمية) •

هذا هو الموضوع الوحيد الذي يمكن ان يعالجه بصورة مشروعـة ، ذلك الروائي الـذي هو مؤرخ (لمغامرات النوع البشري في مخاطر مملكة الارض) •

ومملكة الارض هذه ، التي تقف عليهـا شخصياته ، متعثرة او ميتة ، يجب ان تـدخل الى خطته في تسجيل (الايمان للجنس البشري) •

ان هذا المقطع يعطينا فكرة كونراد عن الانتاج القصصي ولكننا اذا وضعناه مقياسا لرواياتـه الخاصة ، فلن يكون كافيا الا اذا اضفنا الكلمات التالية : (والالام الى مغامرات الجنس البشري) •

وفي كل رواياته من (حماقة المابر) الى (روسيكو) نجده يعنى بتعاسة الانسان المرة الغريبة ، والالم الغامض الذي يتتبع الاحداث عادة •

وليس هناك نقص في العمل ، في وصفه للعواطف وحطام السفن والانقاذ والموت العنيف •

غير ان هذا المظهر المدهش من قصصه ، يحتل المرتبة الثانية ولكنه كفنان يستوحي كشف المسائل الروحية التي

تتبع ذلك. وشخصياته الرئيسية ، من الماير الى رازوموف عبارة عن رجال فشلوا في مهمة الحياة بين مخاطر مملكة العيش . وفشلهم والالام التي تنتابهم في جميع الحالات تعزى الى ثلمة في الاتفاق الانساني الكبير للاخلاص ذلك الشعور باخلاص الانسان نحو الانسان . واخلاص الناس نحو تقاليدهم وجنسهم ويخبرنا كونراد في حماقة الماير عن قصة رجل يفقد احترامه لنفسه ، واحترام زملائه له، بزواجه من فتاة (ملايويه) .

انها قصة الفشل الانساني . ومملكة الارض في هذه الحالة هي اطار مداري غامض يفيد بغناه ، في توضيح الانعزالية الهزيلة بفشل الانسان .

ان قصة (لورد جيم) ، رواية أفضل ، لان تحليل الشخصية الرئيسية اكثر تفاصيل واكثر اقناعا .
وان جيم ضابط السفينة الشاب ، شخص مثالي وعلى شيء من الجبن الخاص .

و في لحظة خطرة ، يهجر هو ومساعدوه سفينة تعج بالحجيج . انها خرق مؤلم لاتفاقية الاخلاص : لذلك الشعور بالزمالة مع كل المخلوقات ، الشعور الذي كان في نظر كونراد هو الامل الوحيد في الجنس البشري. وهكذا يجب على جيم ان يتألم .

يتألم من جهة نظر خارجة بمحاكمته لاهماله واجبه ، وعزله من سفينته .
ويتألم من وجهة داخلية طوال حياته الباقية باحساسه العميق المؤلم لضياع الشرف .
وبعد ان يكون قد كفر عن خطيئته نحو الانسانية ومات ، يشعر القارىء أنه لاتبقى للبطل صورة مايراه (مارلو) راوي القصة . اننا لانرى جيم بصورة واضحة بل من خلال ثقوب في الضباب الذي عاش وتجول فيه .

والذي يبقى عندنا هو ميزة القائنا نظرة تخترق أكثر الامور غموضا وهي : النفس البشرية ، ونجد التفهم للشخصيات ، كما نجد الدقيق المرهف في معالجة كونراد للبطل (راموزوف) بطل قصة (تحت عيون من الغرب) وفي وصفه للكابتن انتوني في قصة (القدر) . وفي لاكسل هيت في (النصر) . وفي القصص الاخرى كما في (قلب الظلام) .

وفي قصة قلب الظلام يعالج مشكلة الشر عند الناس . هذه المشكلة التي لها ارتباط بحقائق الألم في الحياة . ويضيف في هذه القصة صورة غريبة اخرى لمجموعته من الشخصيات في وصفه للشخصية الشريرة (كورتي).
هناك فن رائع الوصف لشخصية الكابتن النشيطة في قصة (الزوبعة البحرية).
ولوصفه في قصة (النصر) وفي البحار المتقاعد مارلو .
وفي افضل روايات كونراد ، يصبح اسلوبه هادئا ، وفهمه الحقيقي مألوفا لدينا . واذا كان هناك تأكد في بحثه عن طبيعة الروح الانسانية الغامضة ، فهناك وصف مطلق لاطارا لحركات لشخصياته وافكارهم . وتلك هي مملكة الارض والبحر التي عرفها معرفة جيدة .

ان الواقعية التي يتم بها وصفه للاشخاص هي عكس الطريقة الخيالية التي يصف فيها المكان الذي يتجول فيه تلك الجزر تشبه أرخبيل الملايو .

فيصف الموانىء السرية الصغيرة ، والغابات الاستوائية الهادئة الحارة الرطبة .

ويصف البحر قبل كل شيء في جميع حالاته:من هدوء وزوبعة وغير ذلك . وكل تفصيل يقدمه كونراد ، يقدمه بدقة محببة . كما يختاره بعناية ، بحيث تكون الصور النهائية غير متوافقة في نفسها فحسب ، بل تأتي متفقة مع جو القصة . ففي قصة (قلب الظلام) مثلا، نجد التهديدات الغامضة في الغابات الاستوائية :تعطي ظلا هائلا يظلل الشر المخبوء في اعماق تلك الغابات .

والجو ــ هو سر القصص ــ ينتج عن تأثير مشترك المزج للاشخاص والحوادث والمكان . وهو ينتج في خلق هذا الجو عندما يظل صادقا في تجاربه عن أماكن بعيدة وغامضة .

ولهذا فقصة(لورد جيم)و(المصادفة)، هما من هذه الناحية

افضل من القصص التي حاول فيها تخليد نشاط رجال الثورات في اوربا •

ولحسن الحظ فان تأثير تجاربه الاولى كان قويا جدا • لذلك فقصصه عن البحر والشرق ، تظهر في كل حالة لمسة أكيدة (في استهوائها لرغبتنا في المتعة والدهشة • وفي استهوائها لرغبتنافي التعرف على الغموض المحيط بحياتنا ، ولشعورنا بالشفقة والجمال والألم) •

ونجاحه في كل هذا يعزي – الى حدبعيد – الى استعماله اسلوبا خاصا غير مباشر في الرواية •هذا الاسلوب الذي يميز كل قصصه ، الا اولى قصتين هما (حماقة الماير) و (منبوذ الجزيرة) •

ولكي يتمكن من أن يحافظ على ناحية التجرد الشخصي ولكي يتمكن – في نفس الوقت – من أن يقدم تعليقاته على الحياة – ابتدع مراقبا مثاليا في شكل بحار متقاعد اسمه مارلو • وهو الذي يقوم عقله بدور نور كشاف يكشف عن تغيرات المصير لمن يقص علينا قصصهم •

وفي قصته (المصادفة) يصبح اسلوبه في تركيبها اكثر تعقيدا بادخال راويتين بلاضافة الى مارلو •

وعلى هذه الطريقة نحصل على شعور الغموض المعقد للحياة البشرية ، وقد رأينا التعقيد في مرايا عقول الناس•

لذلك نتسامح في تهكم مارلو الهادىء ، كما نتسامح ايضا بالنسبة الى نقاط الضعف في مستر (جيم) (الزوبعة البحرية)•وبعد ان نفعل هذا كله،فان تقريرنا للشخصيات من امثال (لورد جيم) (وهير) يزداد •

وهذا الغنى هو الخاصة الرئيسية لاسلوبه النثري •

قليل هم أولئك الكتاب الذين فهموا مقدرة الكلمات على الخلق ، ومقدرة موسيقى النثر على الخلق • وقلة من تمكنوا ان يعلنوا وجود مثل هــذه المقدرة على التعبير في الكلمة المكتوبة • وقليل من الكتاب من نجح نجاحه في وصفهم للعالم المنظور •

وهذا الغريب عن اللغة الانكليزية كان يتمتع بها وبغناها فيطرب لها •

وكان يكثر من الصفات ، ويزيد في ناحيــة الايقاع الموسيقي بنشاط متزايد بيد ان هذه كانت اخطاء في اسلوبه المبكر ،واسلوبه المتأخر يظهر باتقان تام في الوصف التالى:

(وكان عمل المراكب يقوم على شواطىء غير متحضرة فيها امراء غامضون (راجات) يسكنون في خلجان مجهولة تقريبا ، ومستعمرات للمواطنين على الانهار الغامضة التي تفتح مصباتها المعتمة المخططة بالغابات بين فوضى الشواطىء الصخرية الخضراء الشاحبة، والضفاف الخلابة ، في مضائق منعزلة من الماء الهادىء الازرق •وكلها تلمع في ضوء الشمس وقد انزلقت وحدها في غمرة البياض بعيدا عن الدروب المطروقة ، والظلام المخيم والرؤوس العابثة ، وانسربت ساكنة كالشبح من خلف الرؤوس الممتدة، سوداء في ضوء القمر • أو القت مراسيها كطائر بحري تحت ظل جبل مجهول تنتظر الاشارة •

وقد تفاجأ بالايام التي يزعجها الضباب والرياح ،وهي تشق طريقها باحتقار بين الامواج المعتدية الجاوية • أو كانت ترى من بعيد كبقعة بيضاء تنكية متلالئة عبر الكتل الارجوانية المطروقة من السحب المرعـدة المكتومة على الافق) •

وكتب كونراد عن جيمس مرة •

(كل فن مبدع هو سحر • هو استدعاء للاشياء الخفية في صيغ مقنعة مضيئة مألوفة ومدهشة) • وهناك دائما خطر في اعجابنا بمقاطعه الفنية في الوصف لذاتها ، وفي نسياننا انها ليست الامقاطع بسيطة تؤلف جزءا من ادراك كونراد الكلي للحياة ، ومن محاولته الوصول الى حقيقة الرجل وعلاقته بمملكة الارض كفنان ، كان اعتناؤه بالصفة التعسة للجهد الانساني •

وقد قال في احـدى المناسبات : القصة هي التاريخ البشري والا فليست بشيء •

محمد سعيد الكيلاني حماه

رسالـــــة

بقلم : رشيد العمري

حديثي اليك يا ليلى طويل طويل •• ولكن •• لكني لن أطيل •• لن أحدثك عن أيامنا الماضية •• لا ، ولن أحـدثك عن ذكريات عزيزة جـدا علي •• عن ظلين يخطران بضوء القمر •• أو عن جلسات رائعة كانت القلوب تتحدث فيها بلغة تنفي ضرورة الكلام ••

ولن أحدثك أيضا عن آلام عانيتها •• وشرود وضلال وضياع •• فأنا لم آت اليك لاحدثك عن آلامي •• ولا لأستثير عاطفتك بذكريات حلوة •••

جئت اليك يا ليلى أحمل مزق أشرعتي وحطام قلوعي •• لقد ضللت الطريق •• عصيت نداء قلبي •• وعميت عن منارة الامان تنير لي السبيل •• ونشرت قلوعا زائفة •• وجرفتني العاصفة العاتية •• أبعدتني عن الطريق لتلقي بي في أكداس من الظـلام المطبق •• أتيـه فيـه وأتخبط •• وأمواج عالية حاقدة تعلو بي لتقذفني الى أعماق الهاوية •• دون مرشد أو دليل ••

قصدت موانىء عديدة •• لكن سفينتي •• بل الربان الذي يقودها •• كان ينأى بي عن ارتيادها •• انها ليست ملجأي •• ليست لي المأوى •• اني لا ألمح منارة الامان •• المنارة التي يعيش ضوؤها بأعماقي ، يؤكد لي أن هناك طريقا واحدا ، ورصيفا واحدا للامان ••

جئت اليك على سفينة مزقت أشرعتها •• وحطمت العواصف قلوعها •• جئت اليك أحمل جراحاتي وظمأي •• جراحاتي التي لم تجد اليد الحنون تمسح عليها برفق •• وظمأي الذي لم يروه ماء البحر الملح ••

ليلى •• أيتها المنارة تغمر بضوئها أعماقي•• لقد ضللت طويلا طريقي اليك •• شردت بعيدا بعيـدا •• تهت وتخبطت •• وهأنذا أعود اليك •• الى صدرك الدافىء أطلب الامان •• والى ذراعك الحنون أطلب البرء •• الى القلب الكبير أبغي الراحة ••

لم أحمل اليك أناشيد الغزل •• لانك لست حبيبة وانما أكثر من ذلك بكثير •••

لم أذرف الدموع أمامك لان مزق روحي وحطـام شراعي تتحدث عن آلامي •• وعما عانيته ••
لم أطلب الغفران •• لانك لي أم وأخت •• بل أكثر •• ولانك ترين ــ دون غيرك ــ ما أريد أن أقوله ••

وعندما نأيت يا ليلى •• عندما تجاهلت كل ما رأيته وأحسست به •• عندما أدركت أنك لم تغفري للشراع شروده وضياعه ، ولا للملاح عجزه عن مقاومة العاصفة •• عندها •• عندها حطمت يا ليلى قلوعي المتداعية •• وأدرت بقايا الدفة المحطمة نحو المجهول •• تاركا على الشاطىء الجميل بسمة مريرة •• ربما لمحتها في المستقبل تحدثك عن « ملاح تائه » لم يرحب به مرفأه الامين •• بل لفظه الى متاهات البحر •• وربما •• ربما انتقلت الى شفتيك تلك البسمة المريرة وأنت ترقبين البحر •• تفتشين في امتداد الافق عن آثار قارب محطم •• أو عندما تسمعين من السفن القادمة •• أنباء ملاحك الذي قصد الميناء مجرحا منهوكا •• وأعيد خائبا لعرض البحر ليتيه في خضمه ، دون هدف يسعى اليه •• محروما حتى من الامل بالعثور على منارة الامان ••

الكويت **رشيد العمري**

موت سرير رقم ١٢

قصة بقلم : غسان كنفاني

عزيزي احمد ،

اخترتك انت بالذات لهذه الرسالة لسبب قد يبدو لك تافها ، لكنه أضحى منذ أمس مرتكز تفكيري كله . اخترتك أنت بالذات لانني حينما رأيته مساء أمس يموت على السرير الابيض العالي تذكرت كم كنت تستعمل كلمة الموت للتدليل على التطرف . لطالما سمعت منك أمثال هذه الجمل : « كاد يموت من الضحك » . و « انني تعب حتى الموت » و « ان الموت لا يستطيع ان يسكت حبي » والى آخر ما هنالك . صحيح اننا كلنا نستعمل مثل هذه الكلمات ولكنك أنت تستعملها أكثر من الجميع . وهكذا فلقد تذكرتك وانا أراه ينكمش في سريره ، ويشد أصابعه الطويلة النحيلة على غطاء الفراش ثم ينتفض ، ويحدق الي بعيون ميتة .

لماذا لا أبدأ لك القصة من أولها ؟ أنت تعرف لاشك انني أقضي شهري الثاني في هذا المستشفى ، انني أشكو من قرحة في أمعائي ، وكلما سد الجراح ثقبا هناك انفتح في رأسي ثقب جديد لا يدري عنه شيئا ، صدقني ياأحمد ان « قرحة » الدماغ أقسى بكثير من قرحة الامعاء . ان غرفتي تطل من ناحية بابها على الممر الرئيسي لجناح الامراض الداخلية ، وتطل نافذتها على حديقة المستشفى الصغيرة . وهكذا فانني استطيع ان الاحظ ، وانا متكيء على وسادتي : المرضى الذين يمرون بلا انقطاع أمام الباب ، والعصافير التي تطير ، بلا انقطاع أيضا ، أمام النافذة . وفي هذا العجيج من الناس الذين يأتون الى هنا ليموتوا تحت طمأنينة المبضع ، والذين أراهم آتين على أقدامهم ، مغادرين بعد أيام او ساعات ، على عربة الموت ملفوفين بغطاء أبيض ، في هذا العجيج أجد نفسي غير قادر على تدارك الثقوب التي أخذت تنفتح في رأسي ، غير قادر على وقف نزيف الاسئلة التي تجأر بلا رحمة .

ولسوف أغادر المستشفى بعد أيام قليلة ، فلقد رقعوا أمعائي ما وسعهم ذلك ، استطيع الآن أن أسير معتمدا على ذراع ممرضة عجوز قبيحة ، وعلى قوة فضولي . ان المستشفى لم يفعل شيئا سوى أنه نقل القرحة من امعائي الى رأسي ، ان الطب هنا ، كما قلت للعجوز القبيحة ، يستطيع ان يسد ثقبا في الامعاء ولكنه لا يستطيع مطلقا ان يجد اجوبة ليسد بها ثقوبا في التفكير ، لقد ضحكت العجوز يومها عن أسنان ناقصة مسودة ، وقادتني بهدوء الى الميزان .

على أي حال ما لنا ولهذا الحديث انني أريد أن اتكلم عن الموت . عن موت يحدث امامك لا عن موت تسمع عنه . ان الفرق بين هذين الطرازين من الموت فرق شاسع لا يستطيع ان يدركه الا من يشاهد انسانا يتكمش بغطاء سريره بكل ما في أصابعه الراجفة من قوة كي يقاوم انزلاقا رهيبا الى الفناء . كأنما يستطيع الغطاء أن يشده عن ذلك الجبار الذي يستل من عيونه ، شيئا فشيئا ، هذه الحياة التي لا نعرف عنها شيئا .

وحينما كان ينتفض والاطباء حوله ينتظرون ، تصفحت البطاقة المعلقة على ذيل السرير . كنت قد تسللت من غرفتي ووقفت هناك ، وكان الاطباء مشغولين عني بمحاولة يائسة لانقاذ الميت ، وقرأت « الاسم : محمد علي أكبر . العمر : ٢٥ عاما . الجنسية : عماني . » وقلبت الورقة قارئا مرة أخرى : « سرطان في الدم » عدت احدق الى الوجه النحيل الاسمر والعيون الراعبة الواسعة والشفاه

التي ترتجف كبحر من مياه بنفسجية • لقد دارت العيون حتى استقرت على وجهي وخيل الي انه يستغيث بي • لماذا ؟ ألانني كنت أطرح السلام عليه كل صباح ؟ أم لانه شاهد في وجهي فهما للرعب الذي يعانيه ؟ لقد بقي يحدق الي • ثم ، ببساطة ، مات •

عندها فقط اكتشفني الطبيب فجرني غاضبا الى غرفتي ، ولكنه لم يستطع قط أن يبعدني عن المنظر الماثل في ذهني •• صعدت الى سريري وسمعت صوت الممرض يقول ببساطة في الممر المجاور للباب :

ــ مات سرير رقم ١٢ !

قلت لنفسي : « لقد فقد محمد علي أكبر اسمه ، انه سرير رقم ١٢ • ولكن ما الذي أعنيه حينما أتحدث الآن عن انسان كان اسمه محمد علي أكبر ؟ وما الذي يهمه من أن يكون ما زال محتفظا بأسمه أم يكون هذا الاسم قد استبدل برقم ما ؟ وتذكرت في تلك اللحظة كم كان يرفض ان يحذف شيء من هذا الاسم حينما كان ينادي به عليه ، كانت الممرضة تسأله في كل صباح : « كيف حالك يامحمد علي ؟ » وكان محمد علي لايجيب اذ أنه كان يعتبر ان اسمه هو محمد علي أكبر هكذا دفعة واحدة ، وان محمد علي هذا الذي تسأله الممرضة انسان آخر •

وكان المرضون يجدون في هذا الاصرار على وحدة الاسم مادة للمداعبة ، ولكن محمد علي أكبر لم يتخل قط عن جديته في الموضوع ، ربما كان يعتبر ان حقه في امتلاك اسمه الكامل هو اصراره على أن يمتلك شيئا ما •• لقد كان فقيرا ، فقيرا جدا ، أكثر مما تتصور أنت بخيالك الباذخ المتسكع في المقهى، كان الفقر شيئا محفورا في وجهه ، على زنديه ، في صدره ، في طريقة أكله ، في كل ما يحيط به من أشياء •

حينما استطعت أن أسير على قدمي لاول مرة بعد عملية الترقيع ، زرته ، كان ظهر سريره مرفوعا وكان جالسا بشرود غريب • لقد جلست على طرف السرير هنيهة تبادلنا فيها حديثا موجزا باهتا ، ولفت نظري أنه يضع الى جانب وسادته صندوقا خشبيا عتيقا منقوشا عليه اسمه بحروف نصف فارسية ، مربوطا ربطا محكما بخيط من القنب وفيما عدا ذلك كان لا يملك شيئا سوى ملابسه المحفوظة في خزانة المستشفى • اذكر يومها انني سألت الممرضة :

ــ ماذا في هذا الصندوق العتيق ؟

وقالت الممرضة وهي تضحك :

ــ لا أحد يدري • انه يرفض ان يتخلى عن هذا الصندوق لحظة واحدة • ثم مالت علي وهمست :

ــ هؤلاء الفقراء المظهر يخفون عادة ثروة ما ، قد تكون هذه هي ثروته !

وطوال وجودي هنا لم يزره أحد في المستشفى ، لم يكن يعرف أحدا ، وهكذا فلقد كنت أرسل له شيئا من الحلويات التي يغدقها علي زواري • وكان يقبل كل شيء بلا حماسة • لم يكن يجيد الشكر ، وكان هذا التصرف يورثني شيئا من الحنق العابر •

لم أهتم بعدها بالصندوق اللغز • وكانت حالة محمد علي أكبر تسوء باتصال ، ورغم ذلك فان موقفه من الصندوق لم يتغير مما جعل الممرضة تقول لي انه لوكان في الصندوق ثروة ما لكان وزعها أو أوصى بها طالما هو يتجه بهذه السرعة للموت•ولقد ضحكت يومها كالحكماء الصغار قائلا لنفسي ان غباء هذه الانسانة لا يكاد يبلغ حده ، اذ كيف تريد من محمد علي أكبر ان يقيم دليلا على نفسه بأنه لا محالة هالك ؟ وبأنه ليس ثمة أي أمل بالنجاة ؟ ان اصراره على الاحتفاظ بالصندوق هو بمثابة اصراره على الاحتفاظ بأمله في أن ينجو ويعود لصندوقه ويعود صندوقه له ؟

وحينما مات محمد علي أكبر شاهدت الصندوق الى جانبه كما كان كل يوم ، وخطر لبالي ان من الواجب علينا ان ندفن الصندوق معه دون أن نفتحه ، ولكن هذا الخاطر لم يكن يعني شيئا بالنسبة للقضية ، وذهبت الى غرفتي ، وطوال تلك الليلة لم أنم ، كان محمد علي أكبر محفوظا في المشرحة مصرورا بغطاء أبيض ، ولكنه

كان ، في الآن ذاته ،يجلس في غرفتي يحدق الي، ويمر في عنابر المستشفى ، ويتفقد سريره ، وأكاد أسمع انفاسه تلهث قبل أن ينام ، وحينما أشرق الصباح على أشجار حديقة المستشفى كنت قد تخيلت كل شيء عن حياة محمد علي أكبر ، كنت قد كونت لنفسي قصة كاملة عنه شعرت بعد أن أتممت حبكها لنفسي أن علي أن أنام ..

* * *

محمد علي أكبر فقير من الحي الغربي في قرية « ابخا » في عمان ، شاب نحيل اسمر يتقد في عينيه طموح لا يعرف كيف ينطلق . صحيح انه كان فقيرا ولكن ماذا يعني الفقر للمرء اذا كان لم ير في حياته شيئا سواه ؟ ان « ابخا » كلها تشكو الفقر وهو فقر مماثل تماما لما يعانيه محمد علي أكبر ولكنه كان كما قلنا فقراً قنوعا فقرا مستقرا يفتقر لحافز يجعله يشعر بأنه الخطأ وبأن هنالك شيئا اسمه « غنى » . وهكذا فان القربتان اللتان كان يحملهما محمد علي أكبر على كتفيه قارعا أبواب الناس كي يبيعهم ماء كانتا الكفتين اللتين تقيمان الميزان ، لقد كان محمد علي أكبر يستشعر شيئا من الدوار حين كان يتخلى عنه قربتيه وكان حين يحملهما كل صباح يحس بأن حياته انما تجري باطمئنان وانه قد امن على مسير متوازن لا ينحرف .

كان من الممكن أن تستمر حياة محمد علي أكبر على هذا المنوال المنظم الهادىء ، كان من الممكن أن يحدث ذلك لو أن القدر كالحضارة ، أعني لو أن القدر لم يصل الى عمان البعيدة كما لم تصل الحضارة الى هناك ، ولكن القدر كان موجودا حتى في عمان البعيدة وكان لا بد لمحمد علي أكبر من أن يعاني قليلا من مزاح هذا القدر .

حدث ذلك في صباح قائظ كان تراب الطريق ساخنا رغم أن الشمس لم تكن قد استوت بعد في السماء . وكانت هنالك نسيمات شمالية تنفخها الصحراء في وجهه مع قليل من التراب ، لقد قرع بابا فأطلت من فتحته سمراء صغيرة بعيون واسعة سوداء ، وحدث كل شيء بغاية السرعة ، لقد وقف أمام الباب كأخرق اضاع اتجاه الطريق والقربتان تتمايلان على كتفيه الضامرتين ، وانشأ يحدق اليها بلا وعي يتمنى ، كانسان مصاب بضربة شمس خفيفة ، أن تكون لعيونه قدرة سحرية على ضمها، وهصرها ، وبادلته هي التحديق من باب الاستغراب ليس غير ، ولما لم يقو على قول أي شيء ، ادار ظهره وقفل عائد بقربتيه الى الدار .

ورغم أن محمد علي أكبر يمتاز بأنه خجول حتى أمام أهله فانه **يومئذ** لم يجد أي مناص من أن يسكب الامر بين يدي اخته الكبرى كانت امه قد ماتت بالجدري منذ زمن طويل وكان ابوه مقعدا لا يقوى على الحركة ، وهكذا فلقد طلب العون من اخته اذ انه كان يثق بما لا يقبل الجدل بأن (سبيكة) اخته هذه تتمتع بذكاء واتزان يجعلانها قادرة على حل مشكلة من هذا الطراز ، كانت جالسة قبالته على الحصير متدثرة بثوبها الاسود الخشن، وبقيت صامتة حتى لهث (محمد علي أكبر) آخر قصته أمامها ثم قالت :

ـ أخطبها لك .. اليس هذا ما تريده ؟

ـ نعم ، نعم . هل هذا ممكن ؟

قالت اخته وهي تنتزع قشة من الحصيرة القديمة :

ـ ولماذا لا ؟ أنت أصبحت شابا وكلنا في ابخا سواء .

وبات (محمد علي أكبر) تلك الليلة على قلق من نار حتى اذا ما اشرق الصبح قام الى اخته فوجدها اشد توقا منه الى الذهاب ، وتواعدا على أن يلتقيا في الدار عند الظهيرة فتعرض عليه نتاج مساعيها ومن هناك يعدان سوية مشروعهما لاكمال القصة .

لم يدر محمد علي أكبر كيف أمضى وقته يدور في الازقة وقرب الماء على كتفيه ، وكان يواصل التحديق الى ظله يدعو الله ان يجعله دائرة حول قدميه كي يشد ساقيه عائدا الى الدار . ولقد حلت الظهيرة بعد لأي فعاد ادراجه واستقبلته اخته على الباب :

ـ يبدو أن امها توافق . ولكن القضية لا بد أن

تعرض على أبيها .

وصمتت سبيكة قليلا ، ثم تابعت :

ـ وسوف يرد ابوها الجواب بعد خمسة أيام !

لقد ترسب عند محمد علي أكبر شعور بأنه لا بد ينجح في خطبتها . وانطلق منذ ذلك اليوم يبني على قدر ما أعطاه خياله صورا للغد مع السمراء الصغيرة الجميلة ، وكانت اخته سبيكة ترقب الامر بعين حكيمة مجربة .. ثم انها كانت واثقة من النجاح .. فهي متأكدة من نظافة اسمه في افواه اخوانه في « ابخا » وكانت من ناحية اخرى تهتم كثيرا بموافقة أم الفتاة ، ذلك أنها كانت تعرف كيف تستطيع المرأة أن تقدم أية فكرة لزوجها وتجعله يقتنع بها كأنه هو صاحبها..ولذلك، فلقد كانت سبيكة مطمئنة تمام الاطمئنان الى مصير القضية .

وفي اليوم الخامس ذهبت سبيكة الى دار الفتاة كي تأتي بآخر جواب .. ولكنها عادت ووجهها مكسو بفشل حزين . لقد وقفت هناك في زاوية الغرفة غير قادرة على وضع عيونها في عيون (محمد علي أكبر) ، ولم تدر كيف تبدأ ، وحينما استطاعت أن تستجمع شجاعتها قالت :

ـ يجب أن تنساها يا محمد علي .

لم يدر ما يقول فأخذ ينتظر ان تتم اخته حديثها ، ووجدت سبيكة في صمته فرصتها لكي تتابع ..

ـ لقد مات ابوها قبل يومين ، وكانت وصيته الاخيرة لاهل داره ان لا يزوجوها لك .

سمع محمد علي أكبر الكلام كأنه موجه لانسان آخر ولكنه لم يملك سوى ان يسأل :

ـ ولكن لماذا يا سبيكة .. لماذا ؟

ـ لقد قيل له انك شقي تعيش على سرقة الخراف على طريق الجبل وانك تتجر مع الاجانب بسرقاتك

ـ أنـــا ؟

ولم تستطع سبيكة أن تحافظ على تماسك صوتها فرجفت أمامه :

ـ لقد ظنوا انك محمد علي .. أتعرف محمد علي الشقي ؟ لقد ظن والدها أنه أنت ..

قال كطفل يبرر ذنبا لم يرتكبه ، باسطا كفيه أمامه :

ـ ولكني لست محمد علي..أنا محمد علي أكبر..

ـ لقد حدث خطأ.. قلت لهم في أول مرة ان اسمك محمد علي ، لم أقل محمد علي أكبر لانني لم أشعر بحاجة لكي أقول ..

أحس (محمد علي أكبر) بصدره يتهاوى تحت ثقل اللطمة . ولكنه بقي واقفا مكانه يحدق الى اخته سبيكة دون أن يراها تماما ، كان الغضب يعميه وحاول أن يضرب سهما أخيرا :

ـ هل قلت لامها انني لست محمد علي وانني محمد علي أكبر ؟

ـ نعم ولكن وصية الاب الاخيرة كانت الا يزوجوها لـــك !

ـ ولكنني محمد علي أكبر .. بائع الماء .. اليس كذلــك ؟

ما الفائدة من كل القلق الذي اعتراه ؟ لقد انتهى كل شيء ببساطة ، كلمة واحدة وقفت في حلق القضية، فماتت ، لم يستطع محمد علي أكبر أن ينسى الفتاة ببساطة وظل يحوم حول بيتها طامعا في أن يراها مرة أخرى . لماذا ؟ لم يكن يدري . ولكن فشله المتصل جعله يحمل في صدره غضبا ضاريا تحول الى كراهية ، ثم لم يعد يسطيع (محمد علي اكبر) أن يمر في تلك الطريق مخافة أن يستبد به الحنق فيرمي نافذة بيتها بحجر .

من ذلك اليوم بدأ يرفض الا أن ينادى باسمه الكامل .. (محمد علي اكبر) دفعة واحدة .. وكان يرفض أن يجيب على أي انسان يناديه « بمحمد » فقط او « بمحمد علي » ثم ما لبث هذا الرفض ان اصبح عادة.. حتى اخته سبيكة كانت لا تجرؤ على تمزيق اسمه .. لقد كان « محمد علي اكبر » في كل مكان ينادى باسمه الكامل دفعة واحدة ..

ورغم ذلك ، فان القناعة لم تعد تدخل الى صدره قط

•• وبدأت « ابخا » تتحول في عينيه شيئا بعد شيء الى مقبرة قاتمة •• لقد رفض اصرار اخته على تزويجه •• وبدأت دودة اسمها « الثروة » تنخر في رأسه •• لقد أراد أن ينتقم من كل شيء •• ان يتزوج امرأة يتحدى بها كل « ابخا » •• وكل الذين لا يصدقون انه محمد علي اكبر ، وليس محمد علي الشقي •• ولكن ايـن يجد الثروة ؟ وهكذا قرر ان يركب البحرالى الكويت••

المسافة بين « ابخا » ورأس الخيمة ساعتين سيرا على الاقدام ، ومن رأس الخيمة الى الكويت عن طريق البحر رحلة تستغرق ثلاثة ايام •• واجرة الرحلة على مركب مهلهل تكلف سبعين روبية •• فاذا دفعها ، فانه يستطيع ان يبدأ في الكويت حياة جديدة •• ويستطيع بعد عام او عامين ان يعود الى عمان •• ويستطيع ان يتخطر في ازقة « ابخا » لابسا عباءة بيضاء ناصعة مذهبة الحواشي كتلك التي شاهدها على كتفي وجيه من وجهاء رأس الخيمة أتى لبلدته كي يخطب فتاة وصلت شهرة جمالها حتى داره •

لقد كانت الرحلة شاقة حقا •• ان المركب الذي حمل هذا الحشد الطموح عبر الجنوب ، ثم صعد المضيق الى الشمال قاصدا ركن الخليج تعرض بصورة متصلة لاخطار عجيبة •• ولكن النفوس الجياشة التي اعتادت مشاق الحياة لم تكن تبالي بشيء ، وكانت الايدي كلها تتعاون على انقاذ هذه الخشبة الطافية فوق زبد البحر الكبير •• وحينما اطلت صوارى المراكب مستلقية في ميناء الكويت الهادىء أحس محمد علي اكبر بشعور غريب •• لقد سقط الحلم الان من عالم التصور الملون الى الحقيقة •• واضحى عليه الان ان يفتش عن طريق البدء •• عـن اول الحلم •• خيل اليه ان الخيالات التي غذتها كراهيته لابخا ليست كافية للانتقام منها •• وحين كـان المركب الواهن يقترب جارا نفسه من المراكب الراسية ، كان شعوره يهبط الى الارض رويدا رويدا ، وبدا له لمدى لحظات قصار بان أحلامه الطويلة عن الثروة كانت سلوى فشله المفاجىء وانها لم تكن تحمل أي ذرة من المعقول••

بدت له الشوارع الغاصة،والابنية ذات الجدران الصلبة، والسماء الرمادية ، والقيظ والهواء الشمالي الساخن ، والطرق المزدوجة بالسيارات ، والوجوه الجادة ••بدت له كل هذه الاشياء سدودا تقف بينه وبين حلمه •• لقد كان يغذ الخطى سائرا على غير هدى في هذا الخضم من الناس مستشعرا الضياع العميق الذي يشبه الدوار •• ظانا ، حتى أطراف اليقين ، ان الوجوه هذه الكثيرة التي لا تنظر اليـه هي اعداؤه الاول •• وان هؤلاء الناس ، كلهم هم الجدران التي تعترض اول طريقه الى حلمه•• لم تكن القصة هينة كما في « ابخا » ، كانت القصة هنـا بلا بدء ، بلا نهاية ، بلا ملامح ، وبدت له كل الطرق التي سار فيها انها لا تنتهي •• وانها تدور حول سـور يحتضن كل شيء •• كل شيء على الاطلاق •• وحينما قاده طريق ما الى الشاطىء عند الغروب ، ورأى البحر مرة أخرى •• وقف يحدق عبر الافق البعيد المتصـل بالماء •• كـانت « ابخا » هناك •• ملفوفـة بالهدوء •• موجودة على أي حال••كل حي فيها له بدء وله نهاية•• وكل جدار يحمل ملامحه الخاصة •• كانت قريبة من قلبه رغم كل شيء •• وكان يحس انه ضائع في دوامة من الماء الساخن •• ولاول مرة ، لم يراوده أي احساس بالخجل حينما رفع أصابعه ، ومسح دمعا مالحا كان يملأ خديه ••

لقد بكى « محمد علي اكبر » دون حرج •• قـد يكون بكى لاول مرة منذ شب ، واجتاحه ، على حـين غرة ، شـوق ضار لقربتي الماء يحملهما على كتفيه •• كان ما زال يحدق الى الافق ، وكـان الليل يهبط شيئا فشيئا حواليه •• فيجعله يحس نوعا ما ، بانه موجود في مكان ما •• في زمان ما •• وان هذا الليل كليل « ابخا » •• الناس ينامون خلف جدرانهم •• والشوارع تحمل ملامـح التعب والصمت •• والبحر يهـدر لاهثا تحت ضوء القمر •• شعر بالراحة ، ورغب في أن يضحك ، ولكنه لم يستطع ، فعاد يبكي ••

أعطاه الفجر دفقة من أمل جديد •• فقام يجري في

وفي ذلك الجو بالذات وجد كلي نفسه في سن التاسعة عشرة •

وفي عام ١٩٠١ قام كلي برحلته الاولى الى ايطاليا بمصاحبة النحات « هرمان هالر Hermann Haller» زميله في الدراسة ـ وزار ميلانو وجنوا وبيزا وروما ونابولي وأعجب بالحياة الايطالية الحديثة أكثر من اعجابه ببقايا الماضي التاريخي ، وبخروجه من الجو الكلاسيكي الايطالي المصطنع الذي كان يسود ميونيخ ، وجد كلي مفاجأته في ميناء جنوا بأرصفته النشيطة وقواربه ، وسفنه من جميع الجنسيات ، وكان هذا الميناء هو الرمز الحي للتيارات المختلفة التي جاءت من الشرق والغرب والشمال والجنوب عابرة البحر المتوسط، وكان ذلك ذا تأثير خاص بالنسبة لسويسري (لان سويسرا ملتقى الطرق الثقافية الى أوروبا حتى في هذه الفترة الحالية من العنصريات المتصارعة ـ ولهذا كان الفنانون السويسريون انتخابيين بالطبيعة) ولكن التجربة الثانية التي طبعت كلي بعمق كانت زيارته لمتحف الاحياء المائية في نابولي •

فقد كتب كارل نيرندروف* Carl Nierendorf

« في غرفة مظلمة ، كان العالم اللاترابي يبدو من خلال النوافذ الزجاجية قريبا بحيث يستطيع أن يشعر الانسان بأنفاس وحياة الوحوش الاسطورية والنباتات السحرية الشيطانية القديمة ، كم هو ساحر أن تنظرالى تحول زهرة الى حيوان ، أو ان تكتشف أن صخرة ما كانت في الاصل سلحفاة أو سمكة طحلبية »

وكان تفكير كلي متفتحا لاستقبال اغراء كل تجربة فنية ، مع أنه يلوح في البدء أن عصر النهضة لم يجتذبه كما اجتذبته عصور الفن البيزنطي والمسيحي البدائي والوشي القبطي والكنائس والكاتدرائيات الرومانية ، وأشكال الكتابة القديمة بأجمعها •

وفي طريق عودته الى بلاده ، توقف كلي في روما حيث تهيجت امكانياته الحسية بصورة قوية بمشاهدته انتهت ، ولكنه في الواقع بدأ في ذلك الوقت فترة امتحان

* بول كلي ـ نيرندورف طبعة نيويورك ١٩٤١ ص ٢٣

معرض رسم لرودان Rodin ثم رجع مرة ثانية الى ابويه في برن ، وكانت مدة دراسته الرسمية قد وتحليل شديدين لنفسه، دفعته للبدءفي اكتشاف شخصيته وفي نيسان من عام ١٩٠٣ كتب في مذكراته ما يلي [١] :

مضى الآن شهر على رحلتي الى ايطاليا ، واستعراض مظهري المهني « الحرفي » لا يبدو مشجعا أبدا ، ومع ذلك فانني مليء بالامل ، ولست اتصور لماذا ، ولعل ذلك راجع الى أن النقد ، على ما فيه من تدمير ، قد بدأ الآن يعني شيئا بالنسبة لي ، وكان خداع النفس من قبل يمنع هذا •

وعزائي هو أن المهم ليس أن يرسم الانسان أشياء مبكرة النضوج ، ولكن أن يكون انسانا حقا ، أو أن يصبح واحدا على الاقل ، والشرط الاساسي لكل المظاهر الخلاقة هو أن يكون الانسان قد أمسك بزمام الحياة ، وفي حالتي أنا ، غير قادر كما أنا في وضعي من الغم والكآبة حتى أن أفكر بها « بالحياة » فان ذلك الشرط ينطبق علي ، ان الرسم والنحت والمسرح والموسيقى شيء واحد بالنسبةلي،ولكنني أظن أن الرسوم ستستطيع أكثر من استنفاذ هذه الحياة الواحدة •

ان حواسنا يجب ان تبقى متفتحة لنسيطر على عناصر الحياة المتنازعة ، ويجب ان نلحق بمعناها الى آخر درجه ممكنة ويظهر جليا أنه لايمكن التصرف بها بمباديء محدودة معينة ، فالتفهم يجب أن ينمو بصورة طبيعية ، ولايمكنني أن احدد أيا من هذه المباديء • ان التقدم نحو فلسفة للحياة منتج أساسيا ، وهو ينمو بصورة آلية مع الزمن • والاستعمال المتكرر اللامنقطع يجعل خطوطه اكثر وضوحا ، انه قدر اكثر منه ارادة ، والقدر يبدأ بالعمل حال مغادرة الانسان الرحم ، ولكن الاصوات المسيرة للانسان تخفق دائما في امكانية الاسماع اذا اتبع الانسان حرفية الشيء اكثر من روحه •

سيكون علي أن أخيب آمال الناس في البداية ، فالمتوقع

(١) بول كلي ـ حياته عمله روحه لـ « ليوبولدتسان » طبعة بوتسدام ١٩٢٠ ص ٢٦

مني أن أعمل أشياء يستطيع أي شخص ذكي أن يتظاهر بها ببساطة ، ولكن عزائي يجب أن يكون أنني مغمور بسبب صدق نواياي وليس بسبب انعدام الموهبة أو الفطرة ، وأنا أشك في أن هذا يعتمد على ما هو شرعي • علي أن لا أبدأ بالافتراضات ، بل بالنماذج والامثال وليس صغرها مهما فان مكنتني هذه من تحقيق بناء واضح فانني سأربح اكثر مما لو كنت ربحت بمعان خياليــة متوحشة ، ومن نجاح الامثال يصبح الرمز مرئيا بصورة آلية) •

ومرة أخرى في حزيران من نفس العام نجده يكتب (ان التهكم ليس زيادة في الغم ، ولكنه غم ناجم عن رؤية شيء أعلى ، رجل مضحك ـ اله سماوي ، انه كراهية لاي شيء ساكن ، ناجمة عن احترام الانسانية النقية الصافية •

انها مشكلة وضرورة أن يكون عليك أن تبدأ بالاشياء الاصغر ، اريد ان اكون كمن خلق من جديد ، لااعرف شيئا عن أوربا ، لا شيء أبدا • ولا أعرف شيئا عن الشعراء ، حتى لا أنحرف الى أي اتجاه من اتجاهاتهم ، أريد أن أبدأ من جديد بالكلام •

وعند ذلك سأعمل شيئا متواضعا جدا ، سأضع لنفسي أسلوبا دقيقا صغيرا اصطلاحيا أستطيع أن أتدبره بقلمي دون ان افكر بالاسس ، انني بحاجة الى لحظة مناسبة ، فالشيء الصغير يمكن ان يسجل بسرعة وبايجاز •

لقد عملت هذا الشيء من قبل ، لقد كان صغيرا ولكنه عمل حقيقي ، واعادة مثل هذه الاعمال الشخصية الصغيرة سيؤدي يوما ما الى انتاج عمل يمكن ان ابني عليه •

ان الجسد العاري هو الموضوع المناسب تماما ، لقد تعلمت في صف العاري شيئا عنه من جميع الزوايا ، ولكنني الان لااريد ان استمر في اظهار ظل مامنه ، وبدلا من ذلك فانني اريد ان اتقــدم ، حتى تظهر على ورقتي كل عنــاصره الاساسية ، حتى تلك الخافية على المنظور البصري ، وبهذا اكون قد اكتشفت من نفسي شيئا صغيرا لاشك فيه • ويكون هذا بداية تكون الاسلوب •

بقراءة هذه المقاطع نجد ان كلي كان منذ البداية عديم الثقة بكل قواعد الفن الاصطلاحية ، وانه كان قد صمم على الاحتفاظ بحريته الشخصية كفنان ، وبراءته الطبيعية في الرؤيا ، حتى انه ماوراء المظهر الاكاديمي المصطلح ، لمح عن حقيقة اخرى ممتلئة ، وقرر أن يبقى مخلصا مهما كلف الامر للطبيعة والحياة التي خاض تجربتها ودرسها بامعان في البداية ، ولكن نوعا من حتمية نهاية القرن يظهر عليه ايضا لانه خلال الاعوام ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦ التي تابع فيها كلي بقاءه في برن ، انتج مجموعــة من الحفر على المعدن والمهرج لوحة ١ مثال دال عليها والتي استعمل فيها التهكم ليزيل مزاجه السوداوي ان الاعمال الاولى لاي فنان نادرا ماتفعل اكثر من كشف امكانيات وطبيعة مبدعها ، ومن وجهة نظر موضوعية فان رسوم كلي الاولى كانت مدهشة واكثر من هذا فانها ترينا مدى تشربه بتيارات « بوكلين » و « اليوغند ستيل » ولكنها وبصورة اقوى ، تحوي في روحها على الهزء واللذاعــة والرمزية ، والاصرار على التكوين الصريح الذي يطبع كل أعماله اللاحقة ، ولكنه يجب أن لا ننسى أنه في ذلك الوقت ايضا رسم بعض اللوحات متتبعا بها اسلوب ميونيخ الاكاديمي •

وقد توسع أفق كلي الثقافي خلال هذه السنوات بالقراءة المستمرة وكان أ• ت• أ• هوفمان **E. T. A. Hoffmann** وادجار الن بو **Edgar Allen Poe** وغوغول **Gogol** وبودلير **Baudelaire** هم المفضلون عنده ، وبدراسته لـ (غويا) **Goya** » وبليك » **Blake** واوديلون ريدون **Odilon redon** وكوبين **Kubin** وجيمس انسور **James Ensor** بدأ يتذوق الاشياء الخيالية الوهمية الهائلة •

وعندما ذهب الى باريس لاول مرة في عام ١٩٠٥ نجد انه غفل عن النشاط الغزير الذي وجد عند الوحشيين **Fauves** وغيرهم من الملونين **Colourists** الكبار ، لان اهتمامه كان مركزا في شيء آخر ، ولكن هذا الطور انتهى في سنة ١٩٠٦ ، وماكتبه في مذكراته يرينا تقدمه العقلي ، فهو أولا يذكر انه استنفد الاسلوب القاسي ، ويتابع بعد ذلك بقوله :

(للانتقال الى مدخل اكثر تصويرية ، فأنني احز تصاميمي

على لوح زجاجي مطلي بالاسود ، وقد أوحت الي بذلك محاولة غير جدية على صحن من البورسلين ، وبهذا لم تعد الوسيلة خطا أسود ، بل خطا أبيض ، وهي تحقيق كامل للامر القائل « دع النور يدخل ») .

وبهذهالواسطة انزلق بهدوء الى عالم جديد من النغمية واخيرا وفي عام ١٩٠٦ احس أنه الوقت المناسب له لكي يظهر للجمهور فارسل عشرة رسوم بطريقة الحفر على المعدن الى ميونيخ Munchener Sezession وفي نفس السنة أيضا تزوج ليلي شتومف Lily Stumf وكانت عازفة بيانو وابنة طبيب من ميونيخ ، وبعدها قرر أن يترك برن ويستقر في ميونيخ .

وفي السنوات الاولى من القرن الحالي كانت ميونيخ تحيا حياةفنية تقدمية منتجة،وبواسطة المعارض التي اقيمت هناك عرف كلي وتذوق اعمال فان غوغ Van Gohg ومونش Munch وسيزان Cézanne وماتيس Matisse وبيكاسو Picasso ولم يظهر تأثير ذلك عليه بصورة مباشرة ، مع ان هذه التجربة ـ نفسيا ـ حكم عليها ان تتلاءم مع انتقاله الى مدخل اكثر تصويرية « لان كلي كان مايزال يتجنب العمل بالالوان ، وحتى عام ١٩١٢ بقي كل عمله بالاسود والابيض ، وفي هذا المجال الضيق الذي كانفيه ،استغل كليالتدابير الفنية الموضوعية ليخلق اختلافا في التأثير ، وتنوعا في النغمية ، وحتى يمكن أن نجده يحاول بخطوط مكسرة جدا ان يعطي وقعا من الرشاقة والانسياب قريبا من التأثرية في تردده وحيرته وهذا واضح جلي في سانت بيتنبرغ St. Beatenberg لوحة ٢ على سبيل المثال ، ولكن كلي بواسطـة سيزان وبداية التكعيبية بدأ يرى كيف يمكن استخـدام اللون عاطفيا وان يفهم المشاكل الظاهرية التي كن يشتغل بهـا الفنانون الفرنسيون ، وكانت زيارة كلي الثانية لباريس ! « دوانير روسو Douanier Rousseau وماتيس (التي استغرقت معظم عام ١٩١٢ ورأى أثناءها اعمـالا Matisse مناسبة تفتحت بها عيناه ، وفي هذا الوقت تقريبا تعرف كلي على قصائد أكبر منحرف الماني كريستيان مورغن شترن Christian Morgen Stern الذي يغطي لعبه بالالفاظ ولذاعته ـ تحت مظهر من الشعر اللافني ـ شعورا عميقا بالفلسفة الميتافيزيقية .

ان سنة ١٩١٢ ستبقى في تاريخ الفن الالماني على انها السنة التياقيم فيها اولمعرض لجماعة «الفارس الازرق» (Der Blaue Reiter)، وهذه الجماعة ـ التي عمل معها كلي بصورة ثانوية ـ كانت تضم فرانز مارك Fraz Marc وأوغست ماكه August Macke الالمانيين، وفاسيلي كاندنسكي Wassily Kandinsky ومارك شاغال Marc chagal والكسي يولنسكي AlexeJ Jawlensky ـ الروس .

كانت « الفارس الازرق » امتزاجا تأمليـا بين مناجاة خاصة من تأثير شديد بالفولكلور واحساس بالقيم التزيينية وميل موسيقي مجرد عليه بعض ملامح التأثرية ، وعلم بالتكعيبية ،وبين ارادة لاعطاء تعبير فني لذلك العالم الصغير من التصوير الذاتي .

وفي مواضع عديدة، تجد فيرسائل فرانز مارك تعريف هدف الفنان (ولنأخذ تلخيص اديث هوفمان Edith Hoffmann الرائع) بأنه « أن يكتشف ويستوحيالقوانين التي تحكم الكون ، ان يصل الى ماوراء الذات ، ويدخل في دوائر ميتافيزيقيـة » الفن بعبـارة أخرى كان تمثيل الاشياء برموز تقوم مقام افكار ، ولكنه كان هناك جانب آخر لجماعة « الفارس الازرق » يمكن أن يعبر عنه في هذا النص من كتاب كتبه فاسيلي كاندنسكي* :

(ان الصورة لاتكون مرسومة جيدا بالضرورة اذاكانت تحتوي على القيم التي يتحدث عنها الفرنسيون باستمرار انها تكون مرسومة جيدا عندما تكون قيمتها الفنية كاملة ومرضية فقط ، الرسم الجيد هو رسم لايمكن ان يضحي به دون تدمير هذه القيمة الذاتية بغض النظر عن صحتها من وجهة نظر تشريحية أو نباتية أو أي وجهة نظر علمية أخرى ، ليس هناك اعتراض على خرق الشكل الطبيعي ، ولكن الاعتراض (التساؤل) هو على حاجة الفنان لذلك ،

* كتاب فن الانسجامية الروحية لكاندنسكي .

وعلى هذا فان الالوان تستعمل ليس لانها مطابقة للطبيعة ، ولكن لانها ضرورية للوحة بذاتها ، وفي الواقع فان الفنان لايبرر بالاستعمال فقط • ولكن واجبه ، ان يستعمل فقط الاشياء التي تفي بحاجته الشخصية) •

كانت (الفارس الازرق) تركيزا غريبا لفكرة موسيقية فنية ، وايمانها بالتأثير الرمزي للون والخط المستعملين بحرية مشتق بالطبع بصورة واسعة عن غوغان Gaugain الذي كان المؤثر الاكبر الوحيد تقريبا على تطور الفن الالماني الحديث• واصرار كاند نسكي على القيم الموسيقية والفنية تطور منطقي للتأليفية في بونت افن Pont-Aven وفي الوقت نفسه فان الميل المجرد اللاواقعي كان في الاحتفاظ بافكار تنبت في باريس وهولندا •

قد كتب كاندنسكي معرفا بالاخطار المحيطة بمنحاه الذي اختاره لنا نفسه* •

(انه – من ناحية – تطبيق للالوان على اشكال هندسية (نمنمة صرفة) وهو – من ناحية اخرى – الاستعمال الطبيعي الاصح للالوان بشكل كلي (شاعرية صافية)

وهذا يوضح مستوى الوعي الذي بحث عنه ليكشفه ، وفي الحق فان تأكيد (الفارس الازرق) على واجب الفنان (ان يستعمل الاشكال التي تحقق حاجته وان يسبر اغوار وجوده الروحي الداخلي) والتأكيد على فن ذي باطنية هو الذي يميزها عن الحركات الاخرى في ذلك الوقت، ومن الصدف الغريبة ان هذه النقطة بالذات هي التي تفصل كلي عن السرياليين « Surealists »لانه لايعتمد على الصور الحلمية المتدبرة فكريا ، ولا على المساعدة الغير محتملة لانتاج شعر تصويري،ولان مداركه نمت بالفطرة من الجمع الاصطلاحي والروحي لهيكله التصويري •

ولاشك أن روح كلي قد شحذت باتصاله بجماعة « الفارس الارزق » ومن الجدير بالذكر ان كاندنسكي اعتبره في ذلك الوقت «في بداية تطوره» ولكن كلي كان قد اصبح أقل تأثرا بالتيار الروسي ، وعمله بين ١٩١٢ و ١٩١٨ ينحرف عن الفولكلور والنغمة الروحية المجردة الى نوع من الصور ذي معنى ، ومبني على الملاحظة •

وخلال هذه الفترة – في ٩١٤[1] – ذهب كلي مع اوغست ماكه August Macke في رحلة عبر تونس الى مدينة القيروان وقضيا فيها بضعة أشهر ، ويقول (ويلهم هاوزنشتاين) Wilhelm. Hausenstein

(القيروان مركز اقليم من اقاليم تونس،تقع بين بحيرات ملحية في وسط سهل واسع وهي محاطة بسور من الطوب الاحمر بارتفاع ثلاثين قدما ، ولها خمسة مداخل ، وهذا السور متوج بقباب مستديرة تفصل بينها مسافات متساوية وللمدينة قلعة وفيها مائة جامع ودير تقريبا ، وجوهرة الأبنية الدينية هو مسجد (عبقة) Obka الذي بني في عام ٨٢٧م وهو مزين بأربعمائة وعشرين عمود أثري،وسكان المدينة وتوابعها الذين يبلغ عددهم خمسة وعشرين الف نسمة يصنعون السجاد ويشغلون بالجلد (وخاصة البوابيج الصفراء) ويطرقون الاواني النحاسية ويستخلصون زيوت الازهار) •

والشمال الافريقي هو هذه القطعة من افريقيا التي ذهب اليها كثير من الفنانين الكبار بحثا عن الالهام خلال السنوات المائة الاخيرة ،وفي وسط هذا العالم الاسطوري الشرقي ، ازهرت رؤيا كلي الفنية ، وتحرض خياله ، ولاول مرة في حياته رسم لوحات مائية ملونة مشرقة ورومانتيكية ، وقد أخذ بمنظر طبيعي كان بحد ذاته خياليا ، سرابا ، اسطورة من العصور الوسطى ، القباب والجمال وأشجار النخيل والمآذن وأزياء السكان الاسطورية كانت كلها عناصر خلفت تأثيرا خالدا في عقله ، ولهذه الرحلة يدين كلي بلا شك ، بهيامه الطويل طول حياته للنزوات والتخيلات الهندسية ، الهيام الذي نجده منعكسا في كثير من لوحاته في ذلك الوقت ، وهناك ايضا ، وبين صانعي السجاد بدأ استعماله للتزيين على سطح واحد ، لان الملاحظ، خصوصا

* كتاب فن الانسجامية الروحية لكاندنسكي •

+ مطبوعات بول كلي تأليف جيمس ، ت ، سوباي طبعة نيويورك ١٩٤٥ ص ١٢

× كتاب القيروان أو تاريخ حياة الفنان كلي تأليف ويلهلم هاوزنشتاين (ميونيخ ١٩٢١) ص ٨٣ •

في اللوحات القيروانية المائية ، هو الاسلوب الذي استعمل فيه تزيينا من المربعات الملونة يغطي الصورة كلها مستغلا اياه في نفس الوقت لخلق مساحات ومناظير متحولة متغيرة ونجد هـذا الاسلوب في مثـال لاحق « بيوت على البحر Houses By The Sea لوحة ٣ ، وفي هـذه الصور اظهر كلي حذره من التكعيبية وخصوصا في عزمه على عدم تمزيق سطح لوحته بخداعات النظر ، وعلى كل حال فان اهم تطور لكلي في ذلك الوقت كان تحرره من خياليته •

وكان كلي يـ ـر بالحافز التخلي في كل مايراه ويسمعه ويحس به ، وقد عاش كما قال مرة عن نفسه «قريبا بصورة غير اعتيادية من قلب الخليقة » ولكن مثل هذا التنوع في التنبه والتأثر الادراكي واللاادراكي الذي وجد عند كلي لايمكن ان يتمثل وينضج الا اذا نجح الفنان في تطوير الاساليب المناسبة لتقديمه وقد قال مرة » * :

« من هو الفنان الذي لايريد أن ينقب ويحفر الى حيث يكون مركز نظام التغيرات الزمنية والمكانية الطبيعية ، في دولة الخليقة البدائية التي خبيء فيها المفتاح السري للكون بأمان ، ولكن الجميع لايجب ان يذهبوا الى هناك ، فكل واحد يجب أن يتتبع مايصبو اليه قلبه ولكن قلوبنا الخافقة تحن الى الذهاب الى اعمق من هذا ان تحفر بعيدا في البدائية ومحصول هذه الفعالية مهما سمي ، حلما أو فكرة أو خيالا يجب ان يؤخذ بجـد اذا امكنت مطابقتـه مع الاساليب التشكيلية العادية وجعله تجسيما ، وعند ذلك تصبح الغرائب حقائق واقعة فنية ، تجعل الحياة أكبر مما تبدو عادة لانها تعكس مارأيناه بدرجة اكثر أو اقل من النزوع فقط ، ولكنها تجلو للعين ماكان من قبل يدرك بغموض ، قلت «الاساليب التشكيلية العادية » لانه في هذه المرحلة يحدد نوع اللوحة) لهذا ــ ولننقل عن (ويل غروهمان) Will Grohmann ان العلاقة التعادلية التي توجد بين الادراك واللاادراك قد حققت تطورا كبيرا في قوى كلي العقلية والمنطقية ، وقد كان هذا نتيجة لتعلقه بالمسائل الرياضية في صباه ، والتي

* حول الفن الحديث ، محاضرة القاها بول كلي في برن • كتاب بول كلي ، رسومه من ١٩٢١ ــ ١٩٣٠ تأليف ويل غروهمان « بوتسدام ١٩٣٤ »

كان منتظرا بدونها ان تقاسي طاقته التشكيلية كثيرا لانه من الاسس الهامة ان تتمكن من توجيه مانقوم بعمله الى الوجهة التي نريد •

وتابع كلي تجاربه بالصور وبالالوان المتقاربة ، وبدراسة القيم العاطفية والتركيبية للحركات والتضادات الخطية ، وركز على الجانب الاصطلاحي والرياضي للفن ، وانغمس بسرعة في التجارب التجريدية •

وشجع مواضيعه ــ من ناحية اخرى ــ ان تنمو اقتراحيا وتصويريا الى مابعـد الشكل واللون ، وشجع الخطوط والحوادث العرضية التي كانت تحدث على ورقته اثناء تحصيل الموضوع ، وبعبارة اخرى فان لوحته كانت تتشكل وتتكامل أثناء عمله ، و قد عبر عن هذا الاسلوب بصورة رائعـة في كتاباته التربوية التي كانت نتيجة المدة التي قضاها كأستاذ في الـ (Staatlishes Bauhaus) في فايمار Weimar ثم دساو Dessau (١٩٢٠ ــ ١٩٣٠) •

ونجد من خلال عمل كلي أنه يستعمل منهجين متضارعين الاول تمثيلي والثاني لاتمثيلي وهذا مايعني أنه يبني نوعا من الصور باشكال هندسية ملونة دون الرجوع الى الحقائق المادية ولكنه في نوع آخر من الصور » جبل القط المقدس The Mount of The Sacred Cat لوحة ٤ مثلا نجد كلي يستعمل المعرفة الرياضية والتنغيميـة كجسر يستطيع بواسطته ان يلم بجميع عناصر لوحته المتباينة مع بعضها •

وبعكس الرسامين التجريديين ، فان كلي لايحـد نفسه لا بالتدرجات الخام من الاحمر والابيض والاسود والازرق أو بالبناء الهندسي الجاف ، فهو دائما يستفيد من اللاعقلي وكما يقول جورج شميت * :

(لقد فتح كلي لنـا عالم اللون بكل غناه ، ولم يفعل ذلك أي فنان قبله أو منذ ان فعله هو ، فكل الرسامـين يعرفون لحنا لونيا واحدا ، اللحن الذي يناسب شخصيتهم ، ومخزن كلي غير قابل للنفاذ ، فهو يسير أي مدرج تنغيمي ، من كلي غير قابل للنفاذ ، فهو يسير أي مدرج تنغيمي ، من

× كتاب « كلي » لجورج شميت (بال ١٩٤٦)

وجوه جديدة

ناجي

أحلام وأحلام تملأ الرأس الصغير الاشقر .. وصور وصور تتهادى في القلب الطفل البريء .. وأحداث وأحداث تضطرم في الروح الثائرة المشبوبة .. وآمال عذبة ، وكآبة قاتمة ، ونظرة تعبر المطلق على جنح خيال .. وثلاثة عشر ربيعا تضم كل هذا بدفء وحنان ونعومة ودلال .. عواطف أنثى كاملة ، في جسد صغير لم ينم بعد ، وقلب طفل متمرد على حلم يشمل الكون وما بعده .. ونظرة بعيدة بعيدة وهي معلقة بلعبة جميلة .. يد قوية مستقرة رغم صغرها وخطوات متزنة تعرف طريقها وتزيل عثراتها رغم أنها رخصة لدنة .. طفلة صغيرة لم تتم الثلاث عشرة عاما تعيش للشعر .. للفن .. للطبيعة .. للحب .. تهوى الظلام والخريف .. وتنسج من أحلامها الطفلة صورا براقة تنساب بحلاوة مع الفلم ، فتلون الورقة بألف لون ولون .. ولنستمع اليها :



الآنسة عائشة أرناؤوط

ليتك أيها الهواء تحملني
ليت لي جناحين . لاطير ، وأطير ،
وأحط على هذه السحابة البيضاء
وأمشي عليها ،
لأبني قصورا من غيوم ،
وأكواخا من ثلوج ...
بنوافذ من جليد ،
وزجاج من صقيع ،
ستكون مصابيح قصري
وكوخي

قطرات مطر

* * *

انهـا صغيرة طفلة وتعيش طفولتها وتعرف أسرارها .. ومن هو أجدر بالحديث عن العيد وأرجوحة العيد والشريط الازرق والثوب الجديد غير طفلة صغيرة ..

الصغار دوماً يحلمون
وأنا حلمت سبع سنين
بأثواب ملونة ألبسها في العيد

*

هذه الليلة ليلة العيد
وأنا وحيدة
سوف لا أحلم
لان أحلامي ماتت.
مع أمي
مع أبي
سوف لن أحلم
بالثوب السماوي
الذي تلبسني اياه أمي
في صباح العيد

*

أريد أن أنام
وأتوسد الشقاء
وأشرب دموعي
وأقرض ضلوعي

★

الاطفال فرحون
يجرون
في صباح العيد
سعادتهم .. وضحكاتهم
وأنا ...
أجر ماضيا صغيرا مات
أجر ذكريات غابرة سعيدة
في قلبي الحزين
وحيدة في صمتي
وحيدة في قلبي
وحيدة في العيد الذي أحبه
بلا أبوين
بلا يدين
تربطان الشريط السماوي لشعري
أو الزنار الوردي لثوبي الجديد
الذي يطبق على خصري

★

وأرى لينا
ابنة جارنا
الشقراء الصغيرة
ارتدت ثوبها الابيض الجديد
وخرجت في صباح العيد
لتختبىء في الارجوحة المزينة
مع صديقاتها الصغيرات

★

أما أنا الصغيرة
فأنا وحدي الحقيرة
أمام هذا العيد
كل شيء جديد
الا ثوبي الذي يلف جسدي
ويظهر مرفقي الخجول
الصغير
من كمه

★

ويمضي النهار
الذي أحب أن يمضي
لاستكين الى الليل
حيث أخرج ذكرياتي
من أغوار حقيبة أعماقي
وترجع لينا
من جولتها الطويلة
المرحة
محملة بالهدايا الصغيرة
بآمال كبيرة
وقدماها متعبتان
كعصفورين
طارا صحراء واسعة

★

وتخلع لها أمها الثوب الابيض
بهدوء ورفق
وتمسح لها جبينها المندى
وتقبلها
لا بد أنها تفعل ذلك
اني أذكر أمي جيدا
قبلاتها لم يزل احساسها في وجهي
ولمسات يدها
عندما كانت تخلع لي أثوابي الجديدة
مخبأة بين ثنايا ضلوعي

★

كل الصغار يحلمون بالعيد
بالارجوحة المزينة
بالاثواب الجديدة
بالاطفال المرحين

والاصدقاء الصغار
أما أنا الآن
فليس لدي شيء أحلم به
الا ذكريات صغيرة
يومي حقير أمامها
ودموع أمسحها كلما عبرت
ومرت بخدي الصغير الوردي

* * *

الذي يستمع الى هذه القطعة يظن طفلتنا وحيدة يتيمة تجتر ذكرياتها في يوم العيد .. ولكن لا .. لها أم تحنو عليها وأب يحمل اليها الهدايا واخوة يأملون منها الشيء الكثير ويعتزون بها .. ولكن خيالها الجامح وعواطفها المرهفة جعلتها لا تتصور تلك الفتاة الوحيدة اليتيمة وانما تعيشها .. وتكونها .. تكونها فعلا فلا يصدق من يسمعها الا أنها تلك الفتاة التي لا أم لها ولا ثوب جديد يعرف جسمها ولا قبلة دافئة ترتاح على جبينها .. وان رفيقتها لينا تنعم بالحب الذي حرمته وهدية العيد التي لا تعرفها..

وطفلتنا ترعبها القسوة وتقبض علىخناقها المناظر المرعبة فتحيك منها صورا وصورا .. القطة المشردة ، النجمة الضائعة ، الشيخ المتهدم ، الزهرة الزاوية .. كل هذا لا تنساه وتعيشه بعنف وتمرد .. تمرد الخصلة .. خصلة شعرها الثائرة على جبهتها الشامخة .. واذا الطبيعة والدروب صور قاسية راعبة ..

*

أنا كغيمة ضائعة
بين الارض والسماء
بين الشرق والغرب
كدقات ناقوس الكنيسة
تذوب عندما تولد
وتموت عندما تبعث الى الوجود
كدمعة تائهة بين عينيك البريئتين
والارض الحزينة التي تطأها

* * *

ثم تعود طفلة صغيرة مرحة واذا بالطبيعة زورق أحلام تتلألأ ببحر هادىء استمد زرقته من عينيها وبعد غورهما .. فيضم اللون الوردي كل شيء بحب وحنان غامر ، وتنطلق زغرودة حلوة حلوة من الشفاه الطفلة ..

أحلامي جميلة
جبال بنفسجية
مكورة
مرشوشة بقرى زمردية
وسراب حمام أبيض
يطير في السماء الزرقاء
وعربات ملونة تجرها
خرفان بيض
وغيرها
أحلام تعبر رأسي الصغير
وتدور
وتجول
وتعبر

* * *

ولكن حتى صورها المشرقة لا تخلو من السواد الذي يضم روحها القلقة وأفكارها التي تبحث باستمرار وتناقش أكبر المشكلات .

ه .... أأنا تلك ؟..
ه .... أأنا تلك المجاهدة ....
لم يبق مني غير روح تحس
وجثة تتحرك ...
كطيف شبح بين القبور
ترى ، ماذا حل ببلادي ؟..
أرض جدودي
ألا يزال الجنود
يدافعون عن الحدود
هل ظلت ثورة الجزائر مشتعلة
كما ظلت ملتهبة في قلبي ..

* * *

كل شيء يزعج طفلتنا حتى الحلم يبدو كابوسا مرعبا يهز كيانها الناحل فتبكي وتبكي وترى الخريف فيالربيع والظلام في الضياء ...

ما زالت الظلمة تخيفني
منذ أن كنت صغيرة

★

ويجثم على صدري فجاءة
كابوس رهيب
وتتدفق الصور المرعبة
أمام عيني
كشلال هادر
ويقفز الفزع فوق صدري
كديك مذبوح

★

وأفزع عندما أرى
أسياخا تفقأ عينيه
وخناجر تقطع جثته

★

وتستيقظ الجثة
منتصبة
بالرغم من أنها مقطعة
وبين كل قطعة وأخرى
من جسده
فاصل من الهواء
تتلاعب داخله
كجبال من نار
وتتشابك
وأركض هاربة
وتلحقني الجثة المقطعة
وما زلت أركض
والظلام يحيطني
ولا أرى نفسي
الا وقد اشتبك جسدي
بخيط بيت العنكبوت

★

ويعود الكابوس
وتأتي العنكبوت •• الرهيبة
وتنظر الي
وكل نظرة من عينيها
تسرد
أسطورة كابوس
غريب
وتلفني بحبال من فزع •••
وتتركني أسقط
في هوة
سحيقة ••• سحيقة
لا نهاية لها

★ ★ ★

ويخفق القلب المتمرد في سجنه الصغير ، يريد أن يعيش ، أن يرى النور ، أن ينطلق •• ولكن لا •• انها صغيرة وهنا ذروة المشكلة لدى الطفلة •• انها صغيرة والحبيب أي حبيب والرجل أي رجل لا يرى فيها غير طفلة صغيرة يداعبها كما يداعب الدمية •• فتكره عمرها الصغير وسنواتها القليلة وتنادي الحبيب وتصفه بجرأة محببة جرأة الطفل وبراءته وتسرد أحلامها وأحاسيسها دون لف ودوران فتأتي صادقة معبرة •• تصف شعر الحبيب الاسود ومشاعرها عندما يأتي بيتها ويغادره ويدها التي تطلبه وجسدها الذي يتمنى الهرب اليه •• ولنستمع اليها ونراها وهي تعد لحبيب هدية :

أسرح شعر الرياح
وأضفر الخريف والشتاء
هدية لك
أجني ورود حياتي
لاقدمها اليك
في الربيع والصيف

★

انها تبحث عنه :
وفي البيت الصغير
وبين ظلام الليل الاخرس
كنت أبحث عنك
وكانت عيناك
مصباحين في قلبي
كنت أخشى أن أخرجهما

فتطفئهما الرياح
ويخطفهما الظلام
كما خطفك مني
★

حبي
دخان سيجارتك الذي تلفظه
بلا مبالاة
بغير اكتراث
بشكل دوائر
ينظر اليك
وأنا جالسة بقربك
متكئة على أوهامي
أحلم بالاساور الدخانية
الرمادية الزرقاء
تتلاعب في معصمي العاجي
★

تعتبرني صديقة صغيرة لديك
دمية خفيفة في يديك
ولا تعلم أني أحب
كما أحب الربيع
وكما أحب الليل في عينيك
أنا طفلة تحمل ثلاثة عشرة عاما
وأنت
وأنت رجل يجتر وراءه ثلاثين عاما
★

كم أهواك
كم أهوى الحزن في عينيك
★

الرياح تلعب في الحقول
كطفلة
في الربيع
كعذراء
في الجنة
وخصلات شعري
متناثرة
حيرى
★

تريد أن تداعب وجهك
الخمري
★

الاحجار نامت على جوانب
الدروب
والمروج ناعسة
والازهار غفت بين أحضان أمها
كل الناس نائمون
الا أنا فحبك
يسرق النوم من عيني
★

انها تعاتبه بدلال وخفر :
وتودع الكبار
وأبقى أنا صغيرة بلا وداع
ألا ترى بعيني ألف رجاء
بأن لا تذهب
فان السماء أرعد
كقلبي
المكهرب
★ ★ ★

وعبقرية طفلتنا الموهوبة عائشة أرناؤوط بصغر سنها •• فلو جاءت الكلمات على لسان أنثى ناضجة لما صفقنا لها ولما تحدثنا عنها • أما وأن من تنظمها طفلة وصغيرة فهنا الموهبة •• موهبة الطفولة التي تسير نحو النور بخطوات ثابتة •• موهبة الصورة الملونة في الخيال الطفل •• موهبة العاطفة الدافئة في القلب الشاعر ••

ستمر السنون وتكبر الطفلة وتكبر معها أحلامها ولكنها لن تنسى كلمات قليلة ضمتها صفحات الثقافة تحت عنوان وجوه جديدة •• ستقرأ الكلمات المرة تلو المرة وتحفظ حروفها وموضعها على الورقة وتعتز بها كما أرجو أن تعتز بها بلادها وعروبتها ••



صهيل الجواد الابيض

بقلم : داوود يعقوب

اذا ما تساءلنا عن سبب الضياع في عصرنا وجدنا أن انعدام المبدأ في حياة الافراد بعد الحربين الكونيتين الاولى والثانية دفع بهم الى القلق والتمزق وساروا في مجاهل غريبة لا يعرفون الاستقرار خلالها ولقد اهتم الادباء في العالم كله بهذه الظاهرة التي بدأت تجتاح الانسان وهي ظاهرة عدم الايمان بشيء والطموح لامتلاك كل شيء مما سبب الضياع ومن ابرز الذين عالجوا هذه المشكلة باربوس ، كامو ، ديستويفسكي ، نيتشه ، بليك وغيرهم •• ويجدر بنا أن نتساءل هنا ماذا قدم الادباء العرب حول هذه المشكلة التي بدأنا نحسها بوضوح في نفوس شبابنا القلق الغاضب •• فنحن نريد من الاديب العربي ان يعالج المشكلة كمشكلة انسانية شاملة يرى فيها الانسان مهما كانت جنسيته ذاته وحياته • ولقد ترقبنا هذا الانتاج الذي يعطي الحادثة الصحيحة التي تحمل في ذاتها الضياع والتمزق والقلق والتشاؤم والالم يعطيها المتسع الكافي من حياته وأدبه ولكن انتظارنا لم يطل فلقد طلع علينا اديب عربي شاب «زكريا تامر» بمجموعة أقاصيص ولعل أفضل تسمية لها مجموعة تجارب انسان عاصر الآلة ففقد قيمته وانسانيته لكنه لم يقف مكتوف الايدي أمامها « سأهدم المعامل وسأجمع الآلات في مكان واحد ثم أقول بصوت كله مهابة وجلال : انت أيها الآلات مخلوقات مجرمة ، جئت من بلاد غريبة ، حاملة انا الشقاء •• اني آمر بتحطيمك باسم الانسان الذي يريد ان يحيا وايضا نقيا طيبا » •

وزكريا يريد أن يحيا حياة وديعة نقية طيبة ككل انسان على هذه الارض • وليس أجمل من أن يعيش الانسان في هدوء واستقرار ويستمر في الخلق والابداع حتى تتوفر له عوامل البقاء والاستمرار ولكن أنى للانسان المعاصر ان يعرف الاستقرار وهو يحس بدافع قوى للاستقرار العائلي « أنا أريد أن أتزوج •• ولكني بلا عمل •• أريد امرأة تنام في الليل لصقي » ومن هنا نرى الضياع واضحا في حياة انساننا المعاصر لانه يريد الشيء ولا يملك القدرة على تملكه وكيف يستطيع أن يتزوج ما دام بلا عمل ومع ذلك فهو يحب الاستقرار

والثورات والاطفال غير انه لا يجد مهربا من نفسه الا بالتسكع في الطرقات « نهر المخلوقات البشرية تسكع طويلا في الشوارع العريضة » .

وكتاب صهيل الجواد الابيض يحمل أكثر من تجربة انسانية ، فهو يتحدث عن النهر الذي يخترق المدينة عبر الازقة الضيقة وقد « امتزجت مياهه بالدم والدموع وبصديد جراح أبدية » وهكذا يقدم لنا النهر كسجل لحياة هذه الازقة فهو يحمل دمها ودموعها وصديد جراحها الابدية شاهدا على كفاحها من أجل البقاء والاستمرار والحفاظ على حياة الانسان كانسان .ورغم هذا وذاك ورغم الآلام التي يحملها بطل أقاصيصنا فهو يؤمن بأن الحياة جميلة ولكن بعض النفوس القاسية لا تتوانى عن تشويهها « الحياة جميلةولكن بعض المخلوقات تشوهها بقسوة » ومع ذلك فهو لا يفقد الايمان بالبشر « البشر طيبون ، البشر طيبون » ثم يتحدث عن القلق الذي أحس به هو بعد ان طرد من عمله لمجرد اتلاف آلة من الآلات التي حكم عليها بالاعدام فعاش في الضياع لا يعرف ما يريد ، يريد ان ينقذ حبيبته اميمه من الجوع والفقر مع انه لا يملك ثمن رغيف خبز .. اذن لا بد من ان يفكر ويحلم « كنت أحلم بأن اغدو ملكا لكي انقذ اميمه من الجوع والفقر » ويسهل علينا القول الان ان زكريا يعيش انسانا جديدا يحس آلام الاخرين ومشاكلهم ومن هنا ينطلق الكتاب من حيز الوجود العربي الى الدائرة الانسانية الواسعة .

ويجدد زكريا سعادة الانسان من خلال نافذته الخاصة نافذة العدم والعوز وفقدان كل رابط مادي في الواقع الذي يحيا فيه « لكي يكون الانسان سعيدا يجب ان يكون له شيء ما .. ملكه يخصه وحده » ولا يتوانى عن شتم العالم الذي يحيا فيه لانعدام عنصر الارتباط بينه وبين هذا العالم « وشتمت بضراوة عالما لا أملك فيه شيئا .

ويتحدث زكريا تامر في كتابه عن العاطفة التي بدأت تنعدم في الذات البشرية في عصر الآله فلقد فقد الانسان انسانيته وقيمته كانسان محب عاطفي يريد ان يحيا حياة ملؤها السعادة والهناء متناسيا الذات المادية التي التصقت بميكانيكية الآله يريد أن يهمس بصوت خافت مرتعش لانسانة يحبها « انت جميلة .. لو كنت غنيا لاشتريت لك كل جواهر العالم » ان مجرد شعوره بالفقر ينغص عليه حتى شعوره بالحب فيبحث عن أشياء جديدة يحيا خلالها فلا يجد ومن هنا يحمل اسم الانسان القلق فيغلف حياته بستار الابهام والغموض ليصرح لنا بأن المجتمع لا يتوانى عن اعدام كل عاطفة انسانية في سبيل المادة ويقدم لنا عرضا جديدا لمأساة يحياها الانسان في العالم كله مشكلة الزواج والحواجز المادية والطبقية التي تحول دون اتمام طريق الحب الفطري السامي ، الذي يخلق ويبدع في الذات الانسانية وأن نستطيع أن نحس قسوة المجتمع على الانسان من خلال حكم ظاهري فيسمع الانسان ذاته ممثلا في الرجل الزنجي تصرخ فيه « انت مضحك ، لنرجع الى غرفتنا ، انت مخلوق مضحك ، ثيابك عتيقة مزرية وشعرك مشعث لم تقترب منه يد الحلاق منذ أمد طويل » فيظفر لان يقدم نفسه بعد هذه الصرخة المدوية « أنا لست سوى مخلوق ما.. ضائع في زحام مدينة كبيرة .. لست دون جوان .. لا أملك سيارة ولا بناية شامخة في شارع لا يسكنه الفقراء .. جبهتي لم تلمس مرة سجادة مسجد .. لست بطل ملاكمة او مصارعة .. صورتي لا يعرفها قراء الصحف والمجلات .. اشتغل في اليوم ثمان ساعات .. اتعب . ابتلع الطعام بسرعة عجيبة .. ادخن سجائر طاتلي سرت غليظة .. أجلس في المقهى اشترك في حماس بمناقشات عقيمة .. اقامر بمبالغ ضئيلة .. أضحك ببلاهة .. اغازل فتيات .. اشتم الله .. اصادق مومسات .. اروي بحزن حكاية حبي ذات الختام الحزين اسمع سيمفونيات سيبيليوس .. أقرأ كتابا .. أتسكع في طرقات لولبية.. اتجرع بنهم خمورا رديئة..الليل بدونها كآبة مفجعة» فمن خلال هذا العرض لشخصية بطل هذه الاقاصيص نعرف من هو وكيف يعيش وما هي الطريق التي يسير فيها لينسى ضياعه في خمور رديئة وبين أحضان المومسات وكذلك نحس تشاؤم هذا الانسان الذي يرى السعادة في الخريف رغم حكاية الخريف .

ـ انت سعيد .. ما السبب

ـ لقد رجع الخريف •• انظر حولك •• آه ما أسعدني لاني حي

ثم انه يحس بالسعادة لانه حي بينما يروي

« ـ كيف حالك

قلت ـ ما زلت بلا عمل •• لم أجع بعد

قال ـ اشكر الله

قلت ـ اين الله،دلني على بيته لكي اذهب اليه واشكره

فضحك بمرح وقال : مت بسرعة اذا كنت تريد مقابلتــه •

قلت لن انسى نصيحتك »

فكيف يحيا سعيدا لمجرد أنه حي وكيف لا يريد أن ينسى نصيحة تبعث به للموت انه لا يعرف ما يريد فالقلق يدفعه للتفكير في أشياء كثيرة ليس لها نهايـة •• ثم يرى الحياة في صورة خضراء كـل ما فيها أخضر « العالم يفتح أبوابه للربيع •• السماء خضراء••التراب أخضر •• الجبال خضراء •• الغيوم خضراء ••البحار خضراء •• الحـزن أخضر •• أنا أخضر رمادي •• أسود •• كل شيء أسود » • ان الاخضرار يحمل في طياته الصفاء والنقاء والحب فهو يرى العالم بكل ما فيه أخضر حتى الغيوم والبحار ونفسه وكذلك الحزن ثم يرى الاخضرار في نفسه قد أصبح رماديا ثم يسود ليصبح العالم كله أسود من جديد • فهذا الانتقال في النظر الى الكون يعود لشخصية المؤلف التي نراها خلف السطور في كل صفحة من صفحات الكتاب نراها تطل طموحة عاطفيــة •• ثائرة •• خنوعـة •• كسلى •• محبة •• ضاحكة •• باكية •• لا تعرف الضحك ولا البـكاء •• قاسية •• عاطفية •• غريزية متوحشة •• تحمل الف ذكرى •• تحب الحياة •• تكره العالم •• كاذبـة •• صادقة •• حاقدة •• متسامحة •• سكيرة •• ضعيفة لا تحمل قـوة مصارع او ملاكم •• لا تدخن غـير التبغ الرخيص ولا تحتسي غير الخمور الرديئة •• تعمـل ثمان ساعات •• لا تحب العمل •• تكره الآله حساسة لا تستطيع ان تنسى « رائحة لحم العامل المحترق الـذي تساقط عليه الحديد الناري المصهور المندلق من البوتقة التي أفلتت من الايدي التي تحملها » فبعد هذه الاشياء التي تطل من كل صفحة مـن صفحات الـكتاب نرى الكاتب يقدم نفسه

« ـ ما اسمك

ـ أنا بلا اسم

ـ متى ولدت

ـ لم اولد بعد

ـ هل تحب العمل

ـ لا •• أنا أحب كل الاشياء الا العمل

ـ ما هو الشيء الـذي يرفـع المخلوق البشري الى مرتبة انسان

ـ الكسل

ـ ما هي أحسن الفضائل

ـ الكسل

ـ ما هي هوايتك

ـ التثاؤب •• »

نحن نرى انه لم يولد بعد ولكنه ولد « أنا ولدت في سنة **١٩٣١** » •• صـورة أخرى عـن القلق والضياع والتمزق •

وأخيرا لقـد استطاع زكريا تامر ان يقفز في صهيل الجواد الابيض قفزة رائعة لم نعهدها في أدبنا العربي منذ الربع الثاني مـن القرن العشريـن حيث أعطى التمزق والقلق والضياع في أكثـر القصص والصراع الداخلي « الكنز » و « الرجل الزنجي » وقـدم لنا أشياء صغيرة بجانب التجربـة الـكبيرة من خـلال السياق القصصي « الصيف » ثم ينقلنا عبر زورق أحلامه وضياعه في أشياء كثيرة « القبو » • وانني أقول ان صهيل الجواد الابيض بشر بخلق اديب شاب يعطي التجربة احساسه وابداعه فيخلقها من جديد ليرى كل منا ذاته من خلالها ومـا أجمل ان يحس الاديب ذاته تنتقل الى ذوات الآخرين من القـراء •• ولـكم أتمنى ان ينطلق زكريا من حيز الضياع والقلق ليبحث مشكلة المبدأ التي تدفع بالانسان للاستقرار والصمود في وجه الحياة وحتى أحس بالبقاء والاستمرار •• عاش في عالم واقعي هادىء •

دمشق ـ داوود يعقوب

فهرس العدد

صفحة			
١	لغة ... وعربية		محمود العزب موسى
٣	الامة من الانسانية		زكي الارسوزي
٧	خـريف	شعر	علي الجندي كوليت خوري
٨	مريضة	قصة	الدكتور محمد حاج حسين
١١	الشعر والجمال	شعر	محمد رشاد رويحه
١٣	مع الفجر	قصة	محمود الخطيب
١٥	غادة الاوراس	شعر	محمد الجنيدي
١٧	الصفصافة المستحية	شعر	محمود البارودي
١٨	لاريسـا	تعريب	زكية الصوفي
٢٦	التفاحة الذهبية		سعد صائب
٣٢	واقع الفن التشكيلي		عفيف بهنسي
٣٦	كونراد	تعريب	محمد سعيد الكيلاني
٤٠	رسالة		رشيد العمري
٤١	موت سرير رقم ١٢	قصة	غسان كنفاني
٥٠	بول كلي		عبد القادر أرناؤوط
٥٦	وجوه جديدة		الثقافة
٦١	**كتب وقراء**		
	صهيل الجواد الابيض		داوود يعقوب
٦٤	فهرس العدد		